دكتور/ جابر قميحة
كلية الألسن
جامعة عين شمس

أدب الرسائل

في صدر الإسلام

الجزء الأول

عهد النبوة



أدب الرسائل

في صدر الإسلام

عهد النبوة

بقلم
الدكتور جابر قميحة
كلية الألسن - جامعة عين شمس

التوزيع
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني - القاهرة
ص ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

الطبعـة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

إهداء

إلى كـل ذى رســالة جليـلة ...

يعيـش لهـا ... لا بهـا ...

ويمضـى فى طـريق الحـق ...

باسـتعلاء الإيمـان يمضـى ...

أقـوى من الترهيب ... يمضـى ..

أعـلى من الترغيب .. يمضـى ..

لأنه ذو رســالة ..

يعيـش لهـا ..

لا بهـا ..

إلى هـذا الإنســان الســماء ..

أهـدى هـذا الكتاب ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

من قرابة عامين كان لقائى بالقارىء الكريم فى كتابى « **أدب الخلفاء الراشدين** » . وهانذا التقى به فى كتاب جديد هو « **أدب الرسائل فى صدر الاسلام** » . وبين الكتابين كما هو واضح وشيجه قوية ، وصلة واضحة فى الموضوع والمضمون .

أما صلة النفس فقد بدات مع مسيرتى فى تاليف الكتاب .... كتاب « **أدب الخلفاء الراشدين** » وازدادت مع تقدمى فى كتابة فصول الكتاب ، وتحولت من رأى الى ايمان راسخ بفكرة . فقد كان أدب الخلفاء الراشدين قسمين :

القسم الأول ضم النصوص التى مثلت الوانا اربعة هى :

(ا) الخطب والوصايا .

(ب) الكتب والعهود .

(جـ) الحكم والتوقيعات .

(د) الحوار والجدل .

وقد عرضت هذه النصوص مفسرة تفسيرا لغويا ميسرا ينحصر فى ذكر المناسبات والمعانى ، أما القسم الثانى من الكتاب فكان « تقييما » لهذه النصوص ، واستخلاصا للسمات الفكرية والفنية منها . وسميت هذا القسم تأدبا « وقفات ونظرات » .

وفى اثناء البحث بدا لى عدة أمور اهمها :

١ ــ أن هذه الألوان الأربعة التى نسبت للخلفاء الراشدين تمثل

ادبا حقيقيا متميزا ، وخصوصا فيما يتعلق بالقيم الانسانية والخلقية والنفسية والتنظيمية .

٢ ــ أن كل لون من هــذه الألوان يحتاج بحثا مستقلا ، فالمجــال يتسع لبحث عن رسائل الخلفاء الراشدين ، وثان عن خطبهم .. وثالث عن جدلهم ومحاوراتهم ورابع عن حكمهم وأمثالهم . هــذا مع اعترافى بقــوة الصلة بين هــذه الألوان جميعا فهى كلها تنبع من معين واحــد ، وقــد قــدمنا الدليل عمليا على قــوة الصلة ووحــدة المنبع بجمعها وتقييمها فى بحث واحــد وهــو « **أدب الخلفاء الراشدين** » .

ومع تقــدمى فى البحث السابق وقــد قلت فيه ان كتابى هــذا اكتفى بأدب الخلفاء الراشدين قولا وكتابة ، ولم اعرض لأدب غيرهم ممن زامنوهم ، واختلطوا بهم من القــادة والناس الا على سبيل الالمــاع والاشارة فى حالة الضرورة القصوى حتى يتكون للقارىء تصور كامل عن الطبيعة الأدبيــة والنفسية لهؤلاء الخلفاء الذين غيروا وجه الأرض والتاريخ دون ان اقطع خط التتابع بايراد أدب غيرهم بين ما أوردته من ادبهم[1] .

أقول مع تقــدمى فى هــذا البحث حــدثتنى نفسى أن اتبعه ببحث عن « رسائل الخلفاء الراشدين » . واختمرت الفكرة فى ذهنى ولكن عهــدا من العهود وهــو عهد الخلفاء الأربعة لنصارى نجران ادار فى النفس خاطرا بل حــوارا ذاتيا .. ان هــذه العهود الأربعة كانت تتمة .. أو ان شئت نقل امتدادا لعهد سابق .. أو بتعبير أدق كانت مؤسسة على عهد سابق منحه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لنصارى نجران ، فجاءت هــذه « العهود » تاكيدا له من ناحية ، واستلهاما لروحه ونصوصه فى العــدل والانصاف من ناحية اخرى ... واذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نبدأ الموضوع من جــذوره أو من اساسه ويكون محور البحث « رسائل النبى والخلفــاء الراشدين » ؟ .. ولكن لمــاذا لا أخرج بالبحث من دائرة « أدب الشخصيات » الى « أدب العصر » فيما يتعلق بالرسائل ؟ . ورايتنى اصل الى « القرار الحاسم » .. او « لحظة التنوير » فانفتح قلبى للخاطر الجــديد ، ورايته

(١) انظر : جابر قميحة : ادب الخلفاء الراشدين ٢٧ .

يعانق هـذا العنوان « **أدب الرسـائل فى صـدر الاسلام** » . وقـد رجحه عندى عـدة امور هى :

١ ــ اننى لن احتاج الى تخصيص قسم من الكتاب لنصوص هـذه الوسائل ، فأغلبها معروض فى القسم الأول من كتابى « ادب الخلفـاء الراشدين » فالبحث اذن سيكون مقصورا على الدراسة الفنية ، ولن تساق فيه نصوص الا على سبيل التمثيل والاستشهاد .

٢ ــ ان هـذه الدراسة ستكون مغايره للدراسة السابقة ، حتى لو نظرنا الى ما كتبته عن الرسائل ، فما كتبته يمثل أدب « شخصيات » لا « أدب عصر » . كما انه يتسم بالايجاز اذ ان الرسائل لم تظفر من الحديث بأكثر مما نالت غيرها من الفنون النثرية كالخطب والوصايا والحكم . ومن ثم تجىء هـذه الدراسة لتتسع ــ فى سماحة ــ « لتفصيل » فى أدب الرسائل ضاقت عنه طبيعة البحث السابق .

٣ ــ ان هـذا المسـلك أو هـذا الاختيار يتفـق ويساير الطبيعة الوجودية أو الايجادية لهـذا الفن من الناحية الزمانية .. فهو يتتبع فن الرسائل فى صـدر الاسلام من بدايته ، وهـو عصر يبدأ بالنبوة الخاتمة ...ببعث النبى ــ عليه السلام ــ ويستغرق عهد الخلافة الراشدة الذى ينتهى باستشهاد على بن ابى طالب كرم الله وجهه سنة ٤٠ هـ .

* * *

كان هـذا هـو تطور الخاطر أو « المنولوج » الداخلى الى باعث نفسى تحول الى رغبة عارمة تتحقق فى هـذه الصفحات التى يطالعها القارىء .

وفى بطون كتب التاريخ والأدب ترد غير « **الرسالة** » اسماء اخرى تكاد تنحصر فى ثلاثة هى « **الكتاب** » و« **العهـد** » و « **الوصية** » وان كنت ارى فى اجمـال ــ واعتمادا على الاسـتقراء التاريخى والعرف الاستعمالى ــ أن « **الرسالة** » و « **الكتاب** » أوسع الاطلاقات مدلولا وان غلب استعمالهما فى « مكتوب » يحمله رسول الى شخص بعيد عن المرسل .

أما « **الوصية** » المكتوبة فمضمونها الفكرى يغلب عليه طابع التوجيه والارشاد فى مجال خاص أو عام . ويأتى « **العهـد** » غالبا ليجـدد حقوقا

وواجبات معينة بالكتابة ، ولكن هـذا الاجمـال لا يغنى عن التفصيل . ولنبدأ بالمفهوم اللغوى فى بطون المعاجم :

الرســالة :

جاء فى مختار الصحاح(٢) . راسله مراسلة فهو مراسل ورسيل . وارسله فى رسالة فهو مرسل (بفتح السين) ورسول والجمع رسـل (بتسكين السين وضمها) ... والرسول ايضا : الرسالة .

وجاء فى لسان العرب :

والارسال التوجيه ــ وقـد ارسل اليه والاسم الرسالة والرسالة . والرسول والرسيل ... والرسول بمعنى الرسالة .. يؤنث ويذكر .... والرسول : الرسالة والمرسل ... وسمى الرسول رسولا لأنه ذو رسول اى ذو رســالة(٣) .

الكتــاب :

واصل الكتاب : كل ما يكتب فيه ، وفى الحـديث « من نظر الى كتاب أخيه بغير أذنه فكأنما ينظر فى النار » . وهـو محمول على الكتاب الذى فيه سر وأمانة يكره صاحبه أن يطلع عليه . وقيل هـو عام فى كل كتاب .

والكتاب : الدواة : يكتب منها .
والكتاب : التـوراة .
والكتاب : الصحيفة يكتب فيها .
والكتاب : يوضـع موضـع الفرض قال تعـالى « **كتب عليـكم القصــاص** »(٤) .

---

(٢) مختار الصحاح : مادة رسل .
(٣) لسان العرب مادة رسل ١٦٤٣/٣ .
(٤) تاج العروس : فصل الكاف باب الباء .

والكتاب : الفرض والحكم والقدر . والكاتب عند العرب العالم ومنه قوله تعالى « **أم عندهم الغيب فهم يكتبون** »(٥) .

العهد :

العهد : الوصية والأمر قال تعالى « **الم اعهد اليكم يا بنى آدم** » .. وفى حديث على – كرم الله وجهه – « عهد الى النبى الأمى – صلى الله عليه وسلم : أى أوصى .

والعهد : التقدم الى المرء فى الشىء .

والعهد : الموثق واليمين يحلف بها الرجل ، والجمع عهود . تقول : « على عهد وميثاق لأفعلن كذا . وقيل ولى العهد لأنه ولى الميثاق الذى يؤخذ على من بايع الخليفة ... ومنه قول الله سبحانه وتعالى « **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم** » وقال بعض المفسرين : العهد كل ما عوهد الله عليه . وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد .

والعهد الذى يكتب للولاة مشتق من عهد اليه عهدا اذااوصاه .

والعهد : الحفاظ ورعاية الحرية .. والعهد الأمان وكذلك الذمة . وفى التنزيل العزيز « لا ينال عهدى الظالمون » .. وانما سمى اليهود والنصارى أهل العهد للذمة التى اعطوها ...

والعهد : الالتقاء والمعرفة .. والعهد : المنزل ... والعهد : الزمان والعهد : أول المطر(٦) .

الصحيفة :

الصحيفة : قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه(٧) والجمع صحائف

---

(٥) مختار الصحاح مادة كتب .

(٦) تابع العروس .

(٧) اساس البلاغة ٢ /٧ .

وصحف (بضم الحاء) وصحف (بتسكين الحاء) وفى التنزيل « ان هــذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى » يعنى الكتب المنزلة عليهما .

قال الجوهرى : الصحيفة الكتاب . وفى الحــديث : أنه كتب لعيينة ابن حصن كتابا فلما اخــذه قال : يا محمد اترانى حاملا الى قــومى كتابا كصحيفة المتلمس(٨) .

هــذه هى خلاصة مرتكزة لمــا جاء فى المعاجم اللغــوية فى الرســالة والكتاب والعهد والصحيفة : ونلاحظ على هــذه التعريفات اللغوية ما يأتى :

١ ــ انها جميعا تلتقى ــ وهــذا ما أكده انعرف الاستعمالى ــ فى ركنين أساسيين هما : الطرفان أى الناقل والمنقول اليه أو المرسل والمرسل اليه . ثم المضمون المنقول أو المبعوث به . وقــد يكون هناك « رسول ناقل ولكنه لا يمثل عنصرا أساسيا لأن صاحب الرسالة أو الكتاب قــد يؤدى هــذه المهمة بنفسه .

٢ ــ وغير هــذا القاسم المشترك بينهما جميعا يختص الكتـــاب والصحيفة بعنصر أساسى وهــو الكتابة ، فمن فضول القول أن نقرر أن الكتاب لابد أن يكون مكتوبا ، وكذلك الصحيفة . . ومن ثم لا يطلق اى منهما على ما يبلغ أو ينقل لطرف آخر شفاهة .

ولكن الرسالة تكون كتابة كما تكون شفاهة على حــد قول زهير بن أبى سلمى فى **معلقته** :

ألا أبلغ الاحلاف عنى رسالة   وذبيان هل اقسمتم كل مقسم(٩)

وكما نجــد فى قول كعب بن زهير بن ابى سلمى :

الا ابلغا عنى بجيرا رســالة   على اى شىء ويب غيرك دلكا

---

(٨) لسان العرب مادة صحف ٢٤٠٤/٤ .

(٩) التبريزى : شرح القصائد العشر ص ١١٨ .

على خلق لم تلف ابنا ولا أبا — عليه ولم تدرك عليه اخا لـكا
مسقاك ابو بكر بكاس روية — فانهلك المـامون منها وعلـكا[10]

وكذلك العهد يكون كتابة وشفاهة .

٣ — احيانا تستعمل كلمة « **الوصـية** » بديلا للرسالة والكتاب ، وهى كذلك قـد تكون مكتوبة وقـد تكون شفوية ، ولكن مضمونها الفكرى يغلب عليه طابع التوجيه والارشاد فى مجال خاص أو عام .

٤ — ونجـد العهد غالبا يدور على محـور أساسى هـو ذكر حقوق معينة قبل الآخرين .. وغالبا ما يكون كتابة لحفظ هـذه الحقوق وقـد رأينا من معانيه اللغوية اليمين والميثاق ورعاية الحرية ... الخ .

٥ — كانت الرسالة والكتاب هما أشهر هـذه الاطـلاقات وأكثرها استعمالا على مدار التاريخ .. اما أقلهـا بل اندرهـا استعمالا فكلمـة (الصحيفة) التى تستعمل فيما هـو مكتوب ولو لم يكن ثمة اطراف تتبادل الصحيفة ما بين مرسل ومرسل اليه ... ويلاحظ انها لم تستعمل فى القرآن الكريم الا جمعا ، وبمعنى صحف الوحى وكتب الأنبياء[11] .

***

وعلى اية حال يمكن أن نكشف ما تلتقى فيه كل هـذه الاطلاقات بأنه « **المكتوب الذى يتعلق فى مضمونه بأكثر من طرف** » .

---

(١٠) الأغانى ١٨/٦٣٦٤ : ديب غيرك : أى هلكت هلاك ابرك والبيت والابيات ينكر فيها كعب على اخيه بجير اسلامه ، فاهـدر النبى دمه ثم كتب اليه اخـوه بان الاسلام يجب ما قبله فجاء النبى واسلم على يديه وانشده قصيدة « بانت سعاد ٠٠٠٠ » المشهوره ٠٠ وانظر كذلك العمدة ٢٤/١ ٠

(١١) انظر طـه ١٣٣ ، النجم ٣٦ ، عبس ١٣ ، الأعلى ١٨ ، ١٩ ، البينه ٢ ٠ هـذا وقـد آثرنا ارجاء الحـديث عن المفاهيم الفنية للرسالة وانواعها وما دار فى فلكها لحين معالجة الموضوع ذاته فى عهديه عهد النبوة المحمدية وعهد الخلافة الراشدة ٠

وعلى عادة المناطقة وعادة اجدادنا فى التعريفات يخرج المكتوب كل ما كان شفاهة ولو كان رسالة او عهدا أو وصية .. والشق الثانى يخرج ما كتبه الانسان لنفسه ولو كان كتابا مؤلفا ، لأنه — وان كان كاتبه قد قصد به أن يقرؤه الآخرون بقصد الافادة أو الشهرة أو تحصيل المال — لا يعد تعلقا بالمعنى المقصود والذى يكون غالبا تعلقا بشخص معين أو جماعة معينين ككتاب أبى بكر للمرتدين .. وعهد عمر لأهل ايلياء .

على ان هذه الفروق بين الرسالة والكتاب والعهد والوصية ليس لها ايه قيمة عملية ، ولا يترتب عليها اختلاف فى النتائج أو الأهداف المنشودة التى توخاها صاحبها من كتابتها .

الخطبة والرسالة :

وفى مجال التفريقات يهمنا ان نشير فى عجالة الى لون نثرى يأتى فى المرتبة الثانية قيمة وشهرة بعد الشعر وأقصد به الخطابة ... « وتلتقى الخطبة مع الرسالة فى نقل مضمون معين الى فرد أو جماعة » ... ولكن الخطبة تختلف عن الرسالة فى عدة أمور اهمها :

١ — أن الخطبة غالبا بنت البديهة والارتجال ، وهى بنت ساعتها أو لحظتها بلا اعداد أو تهيؤ . أما الرسالة فيسبقها التأنى وتتطلب اعمال العقل ، وقد تقتضى المراجعة والمعاودة .

٢ — وهى نتيجة للسمة الأولى : أن عنصر الفكر فى الرسالة يكون — فى الأغلب الأعم — احضر واقوى فى الرسالة منه فى الخطبة .

٣ — الرسائل ادل وأصدق فى التقييم الفكرى والفنى واقدر على تحديد ملامح صاحبها من الخطب ، لأن الخطب تنقل — غالبا — مشافهة وقد لا تسجل الخطبة الا بعد مضى عشرات من السنين . اما الرسائل فهى ابقى واثبت على الزمن ، لانها « وثائق » مسجلة مكتوبة . وهذا هو السر فى كثرة الروايات وتضاربها فى نقل الخطب وقل ذلك فى الرسائل . كما

أن فقـد جزء من الرسالة أمر بعيد الاحتمال وان كان فقـد الرسالة كلها أمر محتمل . أما الخطبة فمعرضة للنسيان الكلى او الجزئى . وهـذا هـو السر فى عثورنا على بعض الخطب ذات سطور معـدودة ، وعلى نفس الخطب وقـد امتد النفس فيها حتى لتبلغ عشرات من السطور . ولا تعليل لذلك الا اختلاف طرق الرواية واختلاف الرواة حفظا ودراية[١٢] .

* * *

وهـذه الدراسة « ادب الرسائل فى صـدر الاسلام » كما يظهر من عنوانها : بحث فى « الرسالة » بكل انواعها التى سنعرض لها وذلك فى صـدر الاسلام . وهو عصر كما هـو معروف حـده الزمنى قرابة نصف قرن ويبدأ من بعثة النبى ــ صلى الله عليه وسلم (٦١١ م) وينتهى سنة ٤٠ هـ بانتهاء آخر يوم من أيام الخلافة الراشدة . فهـو اذن ينقسم الى **فترتين** ــ لا اقول متميزتين تماما ــ ولكن اقول رئيسيتين ، فبموت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ انقطع خبر السماء عن الأرض بتمام الوحى ... بذلك الاعلان الالهى « **اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لـكم الاسلام دينا** »[١٣] .

أما الفترة الثانية فتبدأ بخلافة أبى بكر وتنتهى باستشهاد على بن أبى طالب .. وهى فترة استغرقت من عمر التاريخ قرابة سبع وعشرين سنة اتسعت خلالها الدولة الاسلامية ، وانتشر الاسلام على نطاق واسـع فى أنحاء المعمورة ، وحـدثت تطورات واضحة فى السياسة والأدب وأسلوب الحيـاة ..

وهـذا البحث يبحث « ادب الرسـالة » فى هاتين الفـترتين اللتين يجمعهما عصر واحـد هـو عصر « صـدر الاسلام » ... وفى كلمات قلائل نعرض فى هـذا البحث بصفة **أساسية** لمـا يأتى :

---

(١٢) انظر كتابنا ادب الخلفاء الراشدين ٤٥٢ .

(١٣) المـائدة ٣ .

١ ــ اتجاهات الرسائل واطرافها ومضامينها الذاتيــة والاجتماعيــة والسياسية والانسانية أو ما يمكن أن نسميه المحور الموضوعى .

٢ ــ الملامح والسمات الفنية لهــذه الرسائل فى اطوارها المختلفة .. او ما يمكن أن نسميه المحور الفنى .

هــذان هما المحوران الأساسيان اللذان يدور حــولهما هــذا البحث ... واذا كان هناك عناصر تفصــيلية فهى ترتبــط بهــذين المحــورين الأساسيين وتدور حولهما ولا تخرج عنهما ... كما سنرى فى صلب البحث ..

هــذا وقــد قسمت البحث قسمين اعتمادا على فترتيه الزمانيتين : وكان القسم الأول عن : الرسائل فى عهد النبوة ..

وكان القسم الثانى عن الرسائل فى عهد الخلافة الراشدة . وكل قسم من القسمين ينقسم الى فصول تدور كما ذكرت على المحــورين الأساسيين اللذين ذكرتهما آنفــا : المحور الموضوعى والمحور الفنى ..

وقــد رأيت ــ لظروف لا يتسع المقــام لشرحها أن تصــدر هــذه الدراسة فى جزئين ، يختص الجزء الأول بعهد النبوة ــ وهــو الذى يسعد بيدى القارىء الآن . ويختص الثانى بعهد الخلافة الراشدة ، وسيصدر فى القريب العاجل ان شاء الله .

الفصل الأول

الكتابة في عهد النبي

عليه الصلاة والسلام

أمــة أميــة

بعث النبى — صلى الله عليه وسلم — فى أمة أمية ، وقــد نص على ذلك القرآن الكريم بقوله : « **هــو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتــلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** »[1] .

ولكن كتابا أفاضل محــدثين يذهبون الى أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا على هــذه الأمية . ومن هؤلاء الدكتور حسين نصار الذى يرى ان الكتابة كانت منتشرة فى البلاد العربية ، وأن التجارة كانت العامل الأول الذى اظهر الكتابة فى بلاد العرب ، ولذلك نجــدها منتشرة حيث توجــد التجارة ، فهى تسير فى رحال الابل والمناطق التجارية ، اذ لم يكن التجــار

---

(١) **الجمعة ٢** : جاء فى تفسير القرطبى : قال ابن عباس : الأميون : العرب كلهم من كتب منهم ومن لم يكتب ، لانهم لم يكونوا اهل كتاب . وقيل الأميون الذين لا يكتبون ، .. وروى ان الأمى : الذى يقرأ ولا يكتب [مجلد ٨/٦٥٧٠] وجاء فى الكشاف : يتلو عليهم آياته . يقرؤها عليهم مع كونه أميا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم [م ٤ — ص ١٠٢] وقيل ان العرب الأميين لانهم كانوا لا يقراون ولا يكتبون — فى الأعم الأغلب . وروى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — انه قال : هكذا وهكذا وهكذا ، واشار باصابعه ، وقال « انا نحن امة امية ، لا نحسب ، ولا نكتب » . وقيل : انما سمى من لا يكتب اميا لانه نسب الى حال ولادته من الأم ، لان الكتابه انما تكون بالاستفاده والتعلم . [سيد قطب : فى ظــلال القرآن مجلــد ٣٥٦٤/٦] .

العرب مستطيعين الاستغناء عنها فى معاملاتهم الداخلية أو الخارجية[٢] . وينقل عن « أوليرى » ان مكة عرفت نوعا من الحكومة الجمهورية فى أيامها الجاهلية ، وكان لهـذه الجمهورية دار تتداول فيها الرأى فى مشاكلها التجارية والسياسية والاجتماعية ، وتعقد فيها المعاهدات السياسية لدفع العـدوان أو تأمين السبل أو تبادل المساعدات العسكرية . . . وانا لنذكر حلف الفضول وحلف قريش ضـد بنى هاشم بعـد ظهور النبى ، وكتابتهم الصـحيفة المشهورة وتعليقها فى جـوف الكعبة . . . . وكتبوا المعلقات على القباطى بماء الذهب وعلقوها على جـدران الكعبة[٣] .

وقـد كثر ذكر الكتابة فى الشعر الجاهلى . . كما جاء فىالقرآن ايضا ، فالقرآن يحث على تدوين الديون والمعاملات التجارية وغيرها مما يدل على أن الكتابة كانت شائعة عندهم . يقول تعالى « **يايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى عليه الحق** »[٤] وكذلك يذكر القرآن أدوات الكتابة مثل القلم واللوح والقرطاس والصحف[٥] . . ويرى الدكتور نصار انه مما يدل كذلك على شيوع الكتابة فى المجتمع الجاهلى دوران لفظ الكتابة فى القرآن فى المواضع المختلفة ، والمعانى المتنوعة التى تتفرع عن لفظ الكتابة بمعنى التدوين والتثبيت مثل قوله تعالى « **كتب عليكم القتال وهـو كره لـكم** »[٦] ... وغير ذلك من الآيات التى توحى بانتشار الكتابة منذ زمن غير قليل[٧] .

وما سبق يستلزم وقفة ومناقشة :

١ ــ فالقرآن كما قطع بأمية النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قطـع

---

(٢) انظر : د. حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ٢٠ .

(٣) السـابق ٢١ .

(٤) البقرة ٢٨٢ .

(٥) راجع آيات : القلم ١ ، والطور ١ ، ٢ ، ٣ .

(٦) البقرة ٢١٦ .

(٧) مصادر السابق ٢٤ ــ ٢٥ .

كذلك بامية العرب فى الجاهلية . . وهـذا القطع ينصرف الى الغالبية العظمى من عرب الجزيرة العربية .

٢ — وتصوير المجتمع الجاهلى بهـذه الصورة الزاهية فى مجال السياسة ونظام الحكم والكتابة يجعل منه مجتمعا لا يقل قـوة وتقـدما عن الدولتين الملاصقتين له . . دولة فارس ودولة الروم . وهـذا مخالف للواقع التاريخى فقـد كانت دولة الفرس تتحكم فى المناذرة ، وكانت دولة الروم تتحكم فى عرب الغساسنة .

٣ — وكتابة بعض الصحف والعهود لا يدل على شيوع الكتابة . . فهى مذكورة فى التاريخ على سبيل الحصر . وأضعاف اضعافها كان يتم شفاهة ، واهتمام التاريخ واحتفاله بها يدل على قلتها — ومن العهود التى تمت شفاهة تعاقـد بنى عبد الدار وبنى عـدى ابن كعب بن لؤى وتاكيدهم حلفهم بوضع ايديهم فى الدم حتى سموا « لعقة الدم »[٨] ، بل ان اشـهر احلافهم وهـو حلف الفضول كان شفاهة ولم يكتب . فقد كان استجابة تلقائية بدافع من الاريحية والشهامة الى الاتفاق على « أن لا يجـدوا بمـكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . . »[٩] ولعل هـذا هو السر فى اختلاف المؤرخين فى القبائل والبطون التى دخلت فيه[١٠] .

٤ — والأمر بكتابة الديون يدل على حرص القرآن على حفظ الحقوق لا على شيوع الكتابة ، بل قـد يحوى أمرا ضمنيا بتعلمها وخصوصا اذا وضعنا بجانب هـذه الآية الثانية من سـورة الجمعـة التى تنص على امية العرب .

على أن الأمر موجه الى الذين آمنوا فى كل زمان ومكان . . . والقرآن قـد يأمر أو ينهى عن أمور ومسائل لا يكون لهـا وجود حقيقى فى المجتمع

(٨) سيرة ابن هشام ٢٠٤/١ .

(٩) السابق ١٤٠/١ وانظر من ١٣١ الى ص ١٤١ .

(١٠) انظر فى تفصيل ذلك الروايات المتعددة فى الأغانى ٦٥٩٧/١٩ — ٦٦١٦ .

حال نزوله مما يدل على عالميته وانه جاء لكل زمان ومكان ومثال ذلك قوله تعالى **« يايها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم »**(١١) .

وحينما فتح النبى ــ عليه السلام ــ مكة ، واخــذ بيعة الرجال ، ثم جلس لأخــذ بيعة النساء ، واخــذ يقول . . . لا تشركن . . ولا تسرقن . . ولا تزنين . . هبت هند بنت عتبة قائله فى استفهام استنكارى أو تزنى الحرة ؟ وفى رواية أخرى : ما زنت منهن امراه قط(١٢) .

فهل خفيت هــذه الحقيقة عن النبى ــ عليه السلام ــ ؟ هل غاب عن خاطره أن الحرائر لا يزنين ؟ اللهم لا . ولكنها عالمية التشريع ، فتحريم ما لم يكن سائدا فى جزيرة العرب ، وما لم يكن قاعــدة لهــا مكانها وثبوتها يدل فى ذاته على « عالمية الاسلام مكانيا من ناحية ، وعلى خلود الاسلام زمانيا من ناحية أخرى ، فالزنى فى وقتنا الحاضر ــ وبخاصة فى الغرب ــ أصبح مظهرا من مظاهر المدنية . او على الأقل لم يعــد من الأفعال التى تشين مقترفها وتصمه بالاثم والعار والخروج على القانون والآداب(١٣) .

٥ ــ والتعبير بالكتابة فى نحو قوله تعالى « كتب عليكم القتال . . كتب عليكم الصيام . . . الخ من المجاز الذى يعرفه العرب ولا علاقة له بانتشار الكتابة أو عــدم انتشارها فمن المجاز : كتب عليه كذا : قضى عليه . . ، وهــذا كتاب الله : قــدره .

قال النابغه الجعــدى :

يا بنت عمى كتاب الله اخرنى عنكم وهل أمنعن الله ما فعلا(١٤)

---

(١١) المتحنة ١٢ .

(١٢) الزمخشرى/الكشاف ٤/٩٥ .

(١٣) جابر قميحة : المدخل الى القيم الاسلامية ٢٠ .

(١٤) الزمخشرى : اساس البلاغة ٢/٢٩٤ .

٦ ــ وكتــابة المعلقات بمــاء الذهب على القبــاطى وتعليقها على الكعبة[١٥] ... راى مضعوف لا يهضمه العقل ، فقــد نقضه الدكتور أحمد الحــوفى بأدلة تاريخية وعقلية قــوية[١٦] ، وهــو يتساءل بعــد ذلك : كيف تصــدق ان العرب كتبوا هــذه القصائد بمــاء الذهب على القباطى وهم أمة أمية ؟ وهــل من المعقول ان ينبغ فيهم من يجيد الكتابة حتى يكتب بمــاء الذهب على القباطى ؟ ... وقــد هــدمت الكعبة وجــدد بناؤها ، واشترك النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى وضع الحجر الأسود فى مكانه ، ثم جاء الاسلام وفتح النبى مكة ودخل البيت الحرام وحطم الأصنام ، ولم يرد للمعلقات ذكر فى هــذه المرة أو تلك .

وقــد ذكرت أنواع كسوة البيت الحرام فى الجاهلية .... ولم تذكر القباطى الا فى كسوة البيت فى صــدر الاسلام فى عهد عمر وعثمان ــ رضى الله عنهما .

ثم من هؤلاء الذين كانوا يقضون بأن القصيدة جــديرة بأن تعلق ؟ وهــل اقفر الشعر القــديم كله فلم تكن فيه قصائد جياد تستحق التعليق غير هــذه السبع ؟ ...[١٧] .

فالحكم اذن بشيوع الكتابة بكل الوانها أو أغلب أنواعها من سياسية وتجارية وفنية فى المجتمع الجاهلى قــول يعوزه الدليل ، وهــو اشــد ضعفا من الحكم بالأمية المطلقة على هــذا المجتمع . اما الحكم السديد حقا فهو ما أوجزه المرحوم أحمد زكى صفوت من أن جمهرة العرب فى ذلك العصر كانت متبدية[١٨] فلم تكن الكتابة فيهم فاشــية ، ولــذا كانوا يعتمدون فى تراسلهم على المشافهة ، فيبعثون برسالاتهم شفهية مع أمناء ينتجعونهم[١٩]

---

(١٥) ممن قال بذلك ابن الكلبى وابن عبد ربه وابن رشيق القيروانى وابن خلدون .

(١٦) انظر كتابه الحياة العربية من الشعر الجاهلى ١٤٦ ــ ١٥١ .

(١٧) الســابق ١٤٨ .

(١٨) تعيش فى البــادية .

(١٩) يختــارونهم .

لابلاغها ، وكانوا يحتفظون بآثارهم الأدبية فيستظهرونها فى الصدور ، ويتناقلونها على الألسن ، ولم يزاولوا من العلوم والفنون ما يقضى عليهم أن يدونوه ويقيدوه فى سجل يدرأ عنه عادية الضياع والامحاء . أما أهل الحاضرة منهم فقد ألموا بالحضارة بعض الالمام ، وكانوا يمارسون الكتابة ، ويتبادلون الرسائل المكتوبة ، ولكنهم لتقادم العهد لم يؤثر عنهم الا رسائل قلائل معدودة(٢٠) .

فالأمر اذن كما قال الجاحظ « كل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا لجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام ، او حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو الا ان يصرف همه الى جملة المذهب والى العمود الذى اليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا(٢١) .

من هنا كان للشعر المقام الأول من الكلام ، وحينما أخذ العرب ببيان القرآن وبلاغته لم يجدوا من فنون القول ما « يرمون » به القرآن الا انه شعر وما « يرمون » به النبى — عليه السلام — الا انه شاعر(٢٢) وهذا « الاتهام » يعد شهادة بأن الشعر هو أرقى كلام ابشر .

ثم تأتى الخطابة فى المرتبة الثانية من فنون الكلام فهى كالشعر تعتمد عند العرب على « بديهة وارتجال » ولم يكن للخطيب فى المجتمع الجاهلى ما كان للشاعر ، اذ كانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر اتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن

---

(٢٠) جمرة رسائل العرب ٩ وانظر احمد امين : فجر الاسلام ١٤٠ وما بعدها .

(٢١) البيان والتبين ٣/١٣ .

(٢٢) انظر آيات : الصافات ٣٦ ، والأنبياء ٥ والطور ٣ والحاقة ٤١ .

احسابهم ، وتخليد مآثرهم ، واشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج(٢٤) .

* * *

النبى الأمى

بعث الله محمدا عليه السلام اميا — اى لا يقرا ولا يكتب ، ولم ينقل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غيره ، فهو وصف خاص لا يشارك محمدا — صلى الله عليه وسلم — فيه احد من النبيين . والأمية آية من أكبر آيات نبوته ، فانه جاء بعد النبوة باعلى العلوم النافعة ، وهى ما يصلح ما فسد من عقائد البشر واخلاقهم وآدابهم ، وأعمالهم واحكامهم ، وعمل بها ، فكان لها من التاثير فى العالم ما لم يكن ، ولن يكون لغيره من خلق الله(٢٥) .

وحينما جاء الاسلام كانت الأمية متفشية فى بلاد العرب فلم يكن هناك من يكتب بالعربية — كما يذكر ابن عبد ربه — الا سبعة عشر انسانا وهم على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان بن عفان ، وابو عبيدة بن الجراح ، وأبان بن سعيد بن العاص وخالد بن سعيد اخوه ، ابو حذيفة بن عتبة ، ويزيد بن ابى سفيان ، وحاطب بن عمرو ابن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمى ، وابو سلمة بن عبد الأسد ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وابو سفيان بن حرب ، ومعاوية ولده ، وجهين بن الصلت بن مخرمة(٢٦) .

ويقال انه كان للنبى — صلى الله عليه وسلم — ثلاثون كاتبا منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن ابى طالب(٢٧) . واختلف

---

(٢٤) العمدة ٦٥/١ .

(٢٥) تفسير المنار ٢٢٥/٩ .

(٢٦) العقد الفريد ٢٥/٤ . وفتوح البلدان للبلاذرى ٤٥٧ .

(٢٧) صبح الأعشى ٩٢/١ .

فى هـذا العـدد نذكر انهم ثلاثة وعشرون ــ أو خمسة وعشرون ، واوصلهم القرطبى فى تفسيره الى ستة وعشرين واوصلهم « الشبراملسى » الى أربعين ، واوصلهم العراقى الى اثنين واربعين ، واوصلهم البرهان الحلبى الى ثلاثة واربعين(٢٨) .

ولكنا نرى ان العـدد مبالغ فيه الا اذا ادخلنا فى هـذا العـدد من كان يكتب له الكلمة والكلمتين ، والجملة والجملتين . ولم يكتب للرسـول ــ عليه السلام ــ الا الوحى من ناحية والرسائل والعهود من ناحية أخرى وكل ذلك لا يحتاج الى هـذا العـدد الهائل من الكتاب ؛ فى وقت كان عـدد الكتاب قليلا حتى انه لم يكن هناك من الكتاب عند بزوغ شمس الاسلام الا سبعة عشر كاتبا ذكروا على سبيل الحصر .

وقـد ذكر الجهشيارى اسماء ثمانية كانوا يكتبون للرسـول تلقيـا منه ــ أى الوحى أو الرسائل أو المغانم ــ وهم : على وعثمان وابى بن كعب وزيد بن ثابت وخالد بن سعيد ومعاوية ومعيقيب بن أبى فاطمة حليف بنى أسـد الذى كان يكتب مغانم الرسول وعبد الله بن ابى السرح . وذكر اسماء أخرى لرجال كتبوا فى عهد النبى : هم :

المغيرة بن شعبه والحصين بن نمير وكانا يكتبان ما بين الناس .

وعبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة وكانا يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء .

وحنظلة بن الربيع الذى كان خليفة كل كاتب من كتاب النبى اذا غاب عن عمـله(٢٩) .

وهـذا يعنى انه كان للنبى كتاب معروفون على سبيل الحصر ، كما

---

(٢٨) انظر : الكتانى : الترتيبات الادارية ١/١١٥ وما بعـدها .

(٢٩) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ .

انهم عرفوا نظام « الكاتب الاحتياطى » الذى يسد مسد من يغيب . وما يذكره الجهشيارى يدل على أن الكتاب ايام النبى كانوا نوعين :

النوع الأول : الكتاب المباشرون الذى يتلقون من النبى — عليه السلام — مباشرة فيكتبون له الوحى والرسائل .

النوع الثانى : كتاب الدولة — على ما فى هذا التعبير من توسع وسماحة — وهم من يسجلون ما يحتاج الى تسجيل من غنائم الحروب وانصبة الناس وحاجات قومهم وما شابه ذلك .

واقل من ذلك بكثير النساء اللائى كن يكتبن مثل الشفاء بنت عبد الله التى كانت كاتبة فى الجاهلية ، وحفصة بنت عمر ، وأم كلثوم بنت عقبة . اما ام سلمة فكانت تقرأ ولا تكتب(٣٠) .

* * *

هـل كتب الرسـول فى حياته ؟

ربما كان السبب فى اثارة هذا السؤال على الرغم من نص القرآن على امية النبى — عليه السلام — هو ما جاء فى كتب الحديث والسيرة واشهرها البخارى(٣١) من أن النبى — عليه السلام كان يملى على بن أبى طالب صلح الحديبية بحضور مندوب قريش : سهيل بن عمرو ، فلما قال النبى — عليه السلام — « **هـذا ما قاضى عليه محمد رسول الله** » قالوا : لا نقر بهذا ، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا ، ولكن انت محمد بن عبد الله ، فقال : **أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله** ، ثم قال لعلى : **امح رسـول الله** ، قال على : والله لا أمحوك ابدا ، فاخذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الكتاب ، وليس يحسن ان يكتب فكتب . **هـذا ما قاضى محمد بن عبد الله لا يدخل مكة السلاح الا السيف فى القراب ، وان لا يخرج من**

---

(٣٠) فتوح البلدان ٤٥٨ .

أهلها باحــد ان أراد ان يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحـــدا ان أراد ان يقيم بها ... »[31] .

واثار هذا الخبر جدلا طويلا بين العلماء عرضه الكتانى بتفصيل[32] محوره مفهوم امية الرسول ومداها . وهـــذه الآراء نكاد تنحصر فى ثلاثة هى :

الرأى الأول — ان أمية الرسول كانت قبل ورود القرآن ، وبعـــد ما تحققت أميته ، وتحققت معجزته لا مانع من كتابته بالتعليم نتكون معجزة أخرى .

الرأى الثانى : قريب من الرأى الأول ولكنه يجعل تعلمه مقيدا محدودا ، فلعله لكثرة ما املى على كتاب الوحى وكتاب السنن والكتب الى الملوك عرف من الخط وفهمه وكتب الكلمة والكلمتين كما كتب اسمه الشريف يوم الحديبية . وليست كتابته لهـــذا القـــدر اليسير مما يخرجه عن كونه أميا .

الرأى الثالث : أنه ظـــل على أميته المطلقة — وان تحريكه يده وهـــو لا يحسن الكتابة كان معجزة لوقتها لأنه « انما حركها فجاء المكتوب صوابا » .

والحقيقة ان الراى الأول ليس عليه دليل لأن القرآن نص عى اميـــة الرسول فى سورة مكية هى سورة الأعراف ، واكد ذلك بالنص عليه فى سورة مدنية نزلت بعـــد استقرار المسلمين فى المدينة بسنوات وهى سورة الجمعة وهى من أواخر السورة المدنية فهى الرابعة والعشرون نزولا بالنسبة للسور المدنية وعـــددها ٢٨ سورة . وهى العاشرة بعـــد المـــائة بالنسبة للقرآن كله . ووصفه عليه السلام بالأمية فى آيتى الأعراف بصفة خاصة وصف يدل على الثبوت دون ارتباط بقبلية أو بعـــدية .

---

(٣١) البخارى كتاب القضاء ١٧٩/٥ وصحيح مسلم : باب صلح الحـديبية ٤٢٠/٤ مع اختلاف فى اللفظ [وفى مسلم فى رواية البراء بن عازب ان عليا حينما رفض محـــو رسول الله . قال له النبى : ارنى مكانها فاراه مكانها وكتب (ابن عبد الله) ٤٢٢/٤ وانظر المقريزى : امتاع الأسماع ٢٩٦ وسيرة ابن هشام ٢٢٩/٣ وليس فيهما ذكر بان النبى كتب بيده .

(٣٢) الترتيبات الادارية ١٧٢ — ١٧٧ .

والرأى الثانى ظاهر التهافت ، لأن الذين قالوا به يأخذهم التردد والحذر والحرج فلا يقطعون بالقول ، فيعبرون بـ « **لعله** » ثم ما قيمة « **كثرة ما أملى على كتاب الوحى وكتاب السنن والكتب الى الملوك** » اذا كان ما سيتعلمه من كل ذلك هو الكلمة والكلمتين وكتابة اسمه مما لا يخرجه عن كونه اميا .

والراى الثالث غير مستساغ ، وبعيد عن التصور لأن تحريك اليد بالكتابة دون فهم لها ومجىء المكتوب صوابا وذلك معجزة .. اتول كل ذلك غير مستساغ وظاهر الافتعال . والقائلون به يعوزهم الدليل ...

وأمام هذه المسألة أو هذه الواقعة .. أو ما قيل انه حدث من محو وكتابة يوم الحديبية فى حاجة الى وقفة نخلص منها الى ما نراه يقينا او قريبا من اليقين :

١ — فهناك اضطراب واختلاف كبير فى الروايات فى كتب الحديث والسيرة : فاحدى روايات البخارى تنص على ان النبى عليه السلام لم يكتف بمحو « **رسول الله** » وكتابة « **ابن عبد الله** » مكانها بل انه استقل بكتابة قدر كبير من الكتاب بينما روايات الامام مسلم بعضها نص على المحو ولم يذكر أنه — عليه السلام — كتب . واحدى الروايات تذكر أنه سأل عليا عن مكان « محمد رسول الله » فى كتاب الصلح ، فمحا « رسول الله » وكتب « ابن عبد الله » بيده ... وليس فى واحدة من هذه الروايات أن النبى عليه السلام أضاف اكثر من ذلك .

٢ — هذا وليس فى سيرة ابن هشام اى ذكر للمحو والكتابة بل ذكر اعتراض سهيل بن عمرو على « بسم الله الرحمن الرحيم » و « رسول الله » .. فاستبدل بهما « باسمك اللهم » و « ابن عبد الله » كما لم يذكر اى اعتراض من على .

وكان عمر بن الخطاب هو اشد المعترضين على الصلح ابتداء مما نسميه بالمصطلح الحديث « المحادثات التمهيدية » وواجه فى غضب ونقمة أبا بكر باعتراضه هذا ، وعبر عن ذلك للنبى — عليه السلام — واعتبر

هــذا « اعطاء للدنية فى الدين » ومع ذلك استجاب عمر للنبى عليه السلام فاصاخ لمـــا رأى ، بل ابدى من الندم ما ابدى بسبب اعتراضه هــذا فكان بقول « ما زلت اتصدق وأصوم ، وأصلى واعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا »(٣٣) .

٣ ــ ويذكر المقريزى أن الصلح كان على غير رغبة الناس ، ولم يشر الى اى **اعتراض من على** ، وأن الاعتراض على الصيغة كان عاما وبخاصة استهلال العهد ويذكر أن سهيل بن عمرو حينما اصر على استبدال « محمد بن عبد الله » بمحمد رسول الله » ضج المسلمون منها حتى ارتفعت الأصوات ، وقام رجال يقولون : لا نكتب الا محمد رسول الله . واخــذ اسيد بن حضير وسعد بن عبادة ــ رضى الله عنهما بيد الكاتب (وهــو على) فأمسكاها وقالا : لا تكتب الا محمد رسول الله والا فالسيف بيننا . . . فجعل رســـول الله يخفضهم ، ويمىء اليهم بيده اسكتوا . . . وقال لعلى : انا محمد بن عبد الله فاكتب فكتب « **باسمك اللهم ، وهــذا ما اصطلح عليــه محمــد بن عبد الله وسهيل بن عمرو** . . . »(٣٤) .

وهــذه الرواية هى الأقرب الى العقل والى طبيعة الوقائع والأحــداث فالغضب والاعتراض على الصلح كان عاما . . وما كان لعلى ــ وهــو الذى تربى فى بيت النبوة ــ ان يخالف عن أمر النبى ويمتنع عن كتابة او محــو عبارة . ومن عجب ان روايات « المحــو » تذكر ان عليا محــا بيده « بسم الله الرحمن الرحيم » وهى آية قرآنية ليستبدل بهــا عبارة كثرة الورود فى الجاهلية وهى « باسمك اللهم » فكيف غاب عنه أن محــو هــذه العبارة لا يقــل ان لم يكن أشــد على نفس المؤمن من محــو « رسول الله » ليستبدل بها « ابن عبد الله » .

٤ ــ وأرى ان تلك الرواية التى تذكر رفض على المحــو ثم رضوخه بعــد ذلك حتى لو كان التغيير قــد تم بيد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(٣٣) سيرة ابن هشام ٣/٢٢٩ .

(٣٤) امتاع الأسماع ٢٩٧ .

من وضع الشيعة أو غلاتهم لتبرر قبول على التحكيم والتصالح مع معاوية بعد ذلك بثلاثين سنة[٣٥] **ولننظر بعض ما جاء فى ذلك :**

« ... وحضر عمرو بن العاص عند على ليكتب القضية بحضوره فكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه **أمير المؤمنين ..** فقال عمرو : اكتب اسمه واسم ابيه - وهو أميركم وأما اميرنا فلا . فقال الأحنف بن قيس : لا تمح اسم امارة المؤمنين فانى اخاف ان محوتها أن لا ترجع اليك أبدا ... فأبى ذلك على مليا من النهار ، ثم ان الأشعث بن قيس قال : امح هذا الاسم . فمحى ، فقال على الله اكبر سنة بسنة[٣٦] . والله انى لكاتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية فكتبت : محمد رسول الله ، وقالوا : لست برسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك ، فأمرنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمحوه فقلت : لا استطيع ، فقال ، أرنيه ، فمحاه بيده ، وقال انك ستدعى الى مثلها فتجيب .... » .

لقد أثار قبول على التحكيم انشقاقا فادحا فى جيشه وادى الى خروج آلاف من جنوده عليه وهم الذين سموا بعد ذلك بالخوارج . وانتهى الأمر بمقتله على يد خارجى هو عبد الرحمن بن ملجم ، بل كان الكثيرون من انصار على ورءوس حوارييه ممن يعارض التحكيم . وكأنما قد وجد الشيعة أو المتحمسون منهم فى الحديبية مخرجا وتبريرا لقبول على التحكيم وصيغة الصلح ومن ثم كان تعمد خلق وجوه شبه بين الصلحين وخاصة فيما يتعلق بالتنازل عن « لقب الرسالة » فى الحديبية . ولقب الامارة فى التحكيم .

* * *

وكتابة على جبل سلع :

ويثور فى هذا المقام أيضا ما هو مكتوب حفرا على جبل سلع[٣٧] ، فعلى اليمين كتب اسم أبى بكر وعلى اليسار « أنا محمد بن عبد الله » و « انا

(٣٥) انظر الكامل لابن الأثير ٣/٣١٦ (وكان ذلك سنة ٣٧ هـ) .

(٣٦) من معانى السنة : الطريقة والوجه والصورة ، والامام على يقصد ان ما يحدث اليوم انما هو صورة لما حدث ايام النبى عليه السلام .

(٣٧) سلع جبل قريب من المدينة .

على بن ابى طالب ، ويقال ان ذلك كتب سنة ٥ للهجرة وهو زمن غزوة الخندق .

ولا يستبعد الدكتور حميد الله صحة هذه الكتابة التى شاهدها بنفسه فى شهر محرم سنة ١٣٥٨ هـ[٣٨] . ويكتب تحت الصورتين غير الواضحتين اللتين عرضهما فى كتابه لهذه الأسماء الثلاثة « ... كان النبى مر بهم ينحتون فقال انحتوا اسمى ايضا معكم » .

وفى بحث قيم انكر احد الباحثين أن تكون هذه الكتابة منسوبة حقيقة لأصحاب هذه الأسماء مستدلا بما يأتى :

١ ــ لو كان هذا صحيحا لكتب على بن ابى طالب ــ رضى الله عنه ــ محمد رسول الله لا محمد بن عبد الله .

٢ ــ لو ثبتت هذه الكتابة فى عصر النبوة لكان لابد لها من مثيل فى أى مكان آخر مثل غارثور او جبل احد أو غير ذلك من حصون اليهود التى تم تطهيرها فى بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة أو خيبر فيما بعد ذلك . ولكن المسلمين لم يكن لهم وقت لمثل هذا النحت .

٣ ــ لو ايدنا هذا الرأى الذى يرى أن هذه الكتابة من عهد النبوة لرأينا مستشرقا مثل مرجليوث يأتى فيدعى أن محمدا لم يكن اميا ، وانه الذى كتب بخطه هذه الكلمة « محمد بن عبد الله » . وقد قيل ذلك قبل هذا الكشف . فالمستشرق الألمانى « نلدكه » فى كتابه « تاريخ القرآن » يتساءل « هل كان النبى محمد يعرف القراءة والكتابة ؟ » ثم يزعم ان لفظة أمى الواردة فى القرآن لا تعنى جهل الرسول تماما بالقراءة والكتابة ، بل تفيد انه لا يعرف الأسفار القديمة . كما جاء فى « قاموس الاسلام » Dictionary of Islam ما نصه « .... ومع ذلك فمن المحقق انه كان يتظاهر بانه يجهل القراءة والكتابة لكى يجعل انشاء القرآن معجزا »[٣٩] .

---

(٣٨) مجموعة الوثائق السياسية ٢٠ .

(٣٩) انظر « الاستراتيجية الاسلامية فى غزوة الخندق والكتابة التى وجدت على جبل سلع » بحث للدكتور عبد الباقى قصة ٦٦ ــ ٨١ من مجلة « الدارة » ربيع الأول ١٣٩٧ ــ فبراير ١٩٧٧ م .

وخلاصـــة راينا فى هـــذه المسالة :

١ ــ أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قطع بامينته من اول يوم نزل فيه الوحى فى قوله « ما أنا بقارىء » كما قطع القرآن بذلك فى الآيات التى عرضناها . ويجب أن لا نصرف عن معناها لعــدم وجود مسوغ للتاويل .

٣ ــ أن الأمية لازمته من أول بعثته الى أن لقى ربه لارتباط الحكمة بها ارتباطا دائما غير موقوت وهى عمق القــدرة والاعجاز فى هــذه الرســالة الربانية .... فنزولها على أمى ابلغ فى الأثر والدلالة من نزولها على قارىء كاتب .

٤ ــ وهى أمية شاملة تصدق على ما كان بالعربية وما كتب بغيرها يدل على ذلك انه أمر زيد بن ثابت ان يتعلم اللغة السريانية حتى يقرأ لــه هــذه الكتب التى ترد اليه بهــذه اللغة(٤٠) .

٥ ــ ولم يرو عنه عليه السلام ــ فى خبر صحيح ــ انه كتب بنفسه آية أو رسالة أو توجيها . ولو لم يكن اميا ما اتخــذ من الصحابة من يكتب له الوحى او يكتب له الرسائل الى الملوك والأمراء والولاة والقادة والناس . على ما سنراه فى الفصول التالية .

وسنرى انه قــد كتبت للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كتب وعهود ، وقــد كانت البدايات شفاهة لا كتابة ، وكانت تسير مع الدعوة فى ارتباط طردى : تتسع دائرة الدعوة ... يزداد الاتصال بالآخرين ... يتم بالدين الجــديد « ارتباط » تنشأ عنه علائق والتزامات جــديدة منها التعبدى ومنها الخلقى ، ومنها الاجتماعى . وتكون هناك « اتفاقات » شفوية ، و « بيعات » غير مكتوبة . وكل أولئك كان تمهيدات لعهود تكتب ، وعقــود تفصل فيما بعــد . ووراء كل أولئك بواعث ودوافع متعــددة الألوان . وبيان ذلك يقتضى مواكبة الدعوة والداعية فى المسيرة المتطورة من بدايتها وهو موضوع الفصل الثانى من هــذا القسم .

---

(٤٠) اسـد الغـابة ٢/٢٧٩ .

الفصل الثاني

البواعث والدوافع

فى مــكة : سنوات الاعــداد

كان نزول جبريل على محمد ــ عليه السلام ــ فى غار حراء بداية عهد جــديد فى تاريخ البشرية . . . وكانت « اقرأ » هى بداية عهد النبوة الخاتمة ، التى سينقطع بعــدها خبر السماء عن الأرض بعــد تمام الرسالة واكمال قواعــد الاسلام الدين العالمى الخالد .

وعلى مدى ثلاثة عشر عاما كانت الدعوة الى الله على بصيرة ونقــاء وتقــوى . ولاقى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ واصحابه من عنت الكفار وخشونتهم واصرارهم على الباطل ما هــو معروف فى السيرة .. ولكنه كان دائما يتدرع بالايمان والصبر والتحمل والسماحة ، وكانت الكلمة التى يرطب بها لسانه دائما « **اللهم اهــد قــومى فانهم لا يعلمون** » . وكلمــا اشتدت قريش فى اذاها وعنجهيتها ازداد اصرارا على مواصلة جهوده فى الدعوة الى الله .

ومن الطبيعى ان يعرض الرسول أولا الاسلام على الصق الناس به من آل بيته وأصــدقائه . وهــؤلاء لم تخالجهم ريبة قط فى عظمة محمــد وجلال نفسه وصــدق خبره ، فلا جرم انهم السابقون الى مؤازرته واتباعه . آمنت زوجنه خــديجة ومولاه زيد بن ثابت ، وابن عمه على بن ابى طالب ــ وكان صبيا يحيا فى كفالة الرسول ــ وصديقه الحميم أبو بكر . ثم نشط ابو بكر فى الدعوة الى الاسلام فادخل فيه أهــل ثقته ومودته عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص ، وآمن القس ورقة بن نوفل . . . . وأسلم الزبير بن العوام وأبو ذر الغفارى وعمرو بن عنبسة وسعيد بن العاص . ونشا الاسلام فى مكة بين من نور الله قلوبهم ، مع ان الاعلام به

كان يقــع فى استخفاء ،ودون مظاهرة من التحمس المكشوف أو التحـــدى السافر ... واستمر هــذا الطور السرى للدعوة ثلاث سنين ثم تنزل الوحى يكلف الرسول بمعالنة قــومه ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم جهارا(١) .

ثم ان الله عز وجل امر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يبادى الناس بأمره وأن يدعو اليه...قال الله تعالى له « **فاصدع بمــا تؤمر واعرض عن المشركين** »(٢) وقال تعالى « **وانذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، وقل انى انا النــذير المبين** »(٣) .

***

واتسعت دائرة الدعوة فى نطاق مكة ومع اتساع الدائرة دخل عشرات من الناس فى الدين الجــديد اغلبهم من المستضعفين الذين لم يكن لهم مكانة اجتماعية يرتكزون عليها ، ولكن اسلام حمزة وعمر كان ولا شك كسبا كبيرا للدين الجــديد . ومع اتساع دائرة الدعوة اتسعت دائرة المعاناة ، ومن ثم كان لابد من الخروج الى دائرة او دوائر أوسع . **وكان هــذا التوسيع أو هــذا الخروج الذى يمثل اول العلائق « بالخارج » يتمثل فى عملين :**

الأول : هجرتا بعض المسلمين الى الحبشة .

الثانى : هجرة النبى والمسلمين من مكة الى المدينة وما سبقها من بيعتى العقبة الأولى والثانية .

كانت الهجرة الأولى الى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة لمــا اشتد البلاء والأذى بالمسلمين . قال ابن اسحق : فلما رأى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هــو فيه من العافية

---

(١) محمد الغزالى فقه السيرة : ٧٥ .

(٢) الحجــر ٩٤ .

(٣) الشعراء ٢١٤ ــ ٢١٥ سيرة ابن هشام ٢٦٤/١ .

بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى ارض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم ، فخرج عند ذلك المسلمون من اصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرارا الى الله بدينهم(٤) . وكان اول من خرج من مكة فارا بدينه الى الحبشة عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتبعه الناس ، فخرج أحد عشر رجلا واربع نسوة متسللين ، منهم الراكب والماشى الى ان ادركوا سفينتين للتجارة حملوهم فيها الى أرض الحبشة فخرجت قريش فى آثارهم فلم تدركهم . ولم يمكثوا فى الحبشة الا شهرين . وبلغهم أن قريشا اسلمت فعاد بعضهم ، وبلغهم أن اسلام قريش كان باطلا فدخلوا مكة وما منهم من احد الا بجوار أو مستخفيا . واقام المسلمون بمكة وهم فى بلاء .

ثم كانت هجرة المسلمين الثانية الى الحبشة وكان على راس المهاجرين جعفر بن ابى طالب ومعه عدد من المسلمين وارسلت قريش فى أثرهم عمرو بن العاص وآخرين ومعهم هدايا الى نجاشى الحبشة ، وحاولوا أن يشوا بالمسلمين عند ملك الحبشة ويشوهوا نظرة الاسلام الى المسيح بن مريم .. ولكن جهودهم اخفقت ... وعامل النجاشى المسلمين معاملة طيبة وأنزلهم منزلا كريما(٥) .

ويطرح الدكتور هيكل(٦) سؤالا تقريريا هو : اكان كل القصد من هذه الهجرة التى قام بها المسلمون بأمر النبى ورأيه الفرار من كفار مكة وما يلحقون به من الأذى ؟ أم انها كان لها كذلك غرض سياسى اسلامى رمى محمد من ورائه الى غاية عليا ؟ من حق مؤرخ محمد أن يسأل عن هذا

---

(٤) ابن هشام ٣١٥/١ .

(٥) انظر المقريزى : امتاع الاسماع ٢٠ — ٢٢ .

(٦) حياة محمد ٦٩ .

بعــد ما ثبت من تاريخ هــذا النبى العربى فى أطوار حياته جميعا انه كان سياسيا بعيد الغــور كما كان صاحب رسالة وأدب نفسى لا يدانيه فيهما فى السمو الجلال والعظمة مدان .

ويميل الدكتور هيكل الى تفسير هاتين الهجرتين الى الحبشة تفسيرا سياسيا مستأنسا فى تأييده بما يروى من ان أهل مكة لم يستريحوا الى خروج من خرج من المسلمين الى الحبشـة ، بل بعثوا رجلين الى النجاشى ومعهما الهــدايا النفيسة ليقنعوه بأن يرد المسلمين من مواطينهم اليهم . والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى ، فليس تخشى قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتبعوا محمدا .

وأعتقد أن « تسييس » الهجرة الى الحبشة أى افتراض أنها كان لهــا غرض سياسى اسلامى رمى محمد من ورائه الى غاية عليا ، اسراف لا مسوغ له . وكون النبى — صلى الله عليه وسلم — سياسيا بعيد الغور لا يلزم منه طبع كل ما كان له من تصرفات واعمال وقرارات بطابع سياسى .

ولعل عبارة ابن اسحق التى نقلها ابن هشام تبرز لنا الباعث الــذى حــدا بالنبى — عليه السلام — الى امر اصحابه بالهجرة وهــو « ما يصيب أصحابه من البلاء » و « ما هــو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمــه أبى طالب »(٧) لقــد اشتد البلاء بالمسلمين والايذاء ، ولم يكن النبى يستطيع أن يدفع عنهم الأذى حتى عن أقرب الناس اليه : ابنته رقية وزوجها عثمان ابن عفــان . أما هو فلكان هناك من تتقى قريش هيبته وهو عمه أبو طالب . فعز على النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يكون فى عانية والمسلمون فى هــذه الحال من الاضطهاد والايذاء فأمرهم بالهجرة فرارا بدينهم وبحثا عن الطمأنينة والسلامة .

---

(٧) كانت الهجرتان الى الحبشة سنة ٥ من البعثة . ومات ابو طالب وخـديجة سنة ١٠ من البعثة وسمى العام عام الحزن .

وقـد برر النبى ــ عليـه السلام ــ اختياره الحبشة دون غـيرها بتبريرين هما : عـدالة حاكمها وصـدق أهلها . وربما كان مصدر ذلك تدينهم الصحيح يدل على ذلك ما دار بين النجاشى وبين رسـل الكفـار فى طبيعة المسيح ــ عليه السلام ــ وقول القرآن فيه .

وما حرص الكفار على رد المسلمين من الحبشة الا نكاية فيهم وتضييقا عليهم لأنهم راوا فى نجاحهم فى الفرار اهانة لهم ووصما بالعجز والضعف ، وهى عنجهية لازمتهم فى صلح الحـديبية اذ أصر سهيل بن عمرو على ان ينص فى الصلح على انه من اتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه[٨] . بل انهم كانوا يخشون أيضا أن ينتشر الاسلام على أيدى المهاجرين فى الحبشة فنصرانية أهلهـا لا تقف حائلا دون ذلك كما ذهب الدكتور هيكل ، وكما سنعرف بعد قليل .

ولكن هذه الهجرة كان لهـا ولا شك آثار طيبة وان كانت غير مباشرة وتتلخص فيما يأتى :

١ ــ انها اثبتت للكفار قدرة المسلمين على الحركة والتصرف والسياحة فى آفاق خارجية .

٢ ــ انها نقلت ــ لأول مرة ــ اسم الاسلام خارج الجزيرة العربية ، وبدأت عيون الأحباش تنفتح لأول مرة على اسلام هؤلاء المهاجرين ، وكان ذلك ما تخشاه قريش دون شك . وتحققت فى هـذا المجال الدينى نتيجة طيبة وان كانت جزئية ، فقـد نقـل ابن اسحق انه قـدم بعـد ذلك على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهـو بمكة عشرون رجلا او قريب من ذلك حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجـدوه فى المسجد ، فجلسوا اليه ، وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى انديتهم حول الكعبة ، فلما فرغـوا

---

(٨) انظر سيرة ابن هشام ٢٢٨/٣ .

من مسألة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عما أرادوا دعاهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت اعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من امره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب !! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتاتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركبا أحمق منكم . . . فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نال أنفسنا خيرا(٩) .

ونعود فنؤكد ان هجرة المسلمين الى الحبشة لم تكن ذات مضمون سياسى ، وكانت محدودة الهدف ، أو بتعبير آخر كانت فى المقام الأول « ذاتية الهدف » . . . فرارا بالدين وبحثا عن السلامة ، ومن البدهى أن نقول ان ذلك لا يمنع من تحقق نتائج تبعية لم تكن منشودة متوخاة فى الأصل . .

* * *

الهجرة الى المدينة او الطريق الى الدولة :

والتشريع المكى — ومصدره الأول هو القرآن — كان تركيزه الأساسى على أصول العقيدة والدعوة الى وحدانية الله وهجر عبادة الأصنام والتأمل فى خلق الله ومظاهر عظمته وقدرته واستثارة الحس والشعور والوجدان الفطرى ، مع التذكير بأخبار الأنبياء والأمم السابقة للاتعاظ والاعتبار(١٠) . وفى الفترة المكية وعلى مدى ثلاثة عشر عاما وجدت نواة المجتمع الاسلامى ، وتقررت قواعد الاسلام الأساسية بصفة عامة(١١).

(٩) سيرة ابن هشام ١/٣٧٠ .
(١٠) أنظر فى تفصيل ذلك : مناع القطان : التشريع والفقه فى الاسلام ٤٣ — ٥١ .
(١١) د. ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية ٢٥ .

ومضى على الدعـــوة الوليدة عقـــد من الزمان بلغ عـــدد المسلمين فيه مئات ولكن الايذاء اشتد بهم بعـــد موت خديجة وعبد المطلب وبلغ العناد بقريش اقصى مداه ، ودابت على ايذاء المسلمين واشتدوا فى هـــذا الايذاء . . . وارادوا أن يصعدوا من مسلكهم بضرب الاسلام فى شخصية النبى بالتخلص منـــــه .

وأدرك النبى ــ عليه السلام ــ أن تربة مكة لم تعـد تسمح للنبت الجـــديد بأن يجود ويترعرع ، فبدأ بنظره يخترق حـــدود مكة . . . وبدا يتجه بنظره الى المدينة فكانت الهجرة .. وقبل الهجرة كان هناك مع أهلها لقاءات ثلاثة كل منها مورق مثمر :

اللقاء الأول : حينما كان النبى يعرض نفسه على القبائل فى الموسم بعـــد أن اشتد عليه اذى الكفار واستهزائهم به بعـــد الاسراء والمعراج .. وكان يقول وهـــو يعرض نفسه على القبائل ــ وهـــو اول تطلع الى الخروج بالدعوة من مكة الى مجتمع آخر : **من رجل يحملنى الى قـــومه فيمنعنى حتى ابلغ رسالة ربى فان قريشا قـــد منعونى ان ابلغ رسالة ربى ؟**

هـــذا وعمه أبو لهب وراءه يقـــول للنـــاس : لا تسمعوا منه فانه كـــذاب(١٢) .

ثم كان لقاؤه فى هـــذا الموسم مع جماعة من الخزرج : عرض عليهم الاسلام ، وقرأ عليهم القرآن . . . وأسلموا وقالوا « انا قـــد تركنا قومنا ولا قـــوم بينهم من العـــداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هـــذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك »(١٣) .

---

(١٢) امتاع الأسماع ٣١ .

(١٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٩ .

وكانوا ستة انصرفوا عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — راجعين الى بلادهم ، وقــد آمنوا وصـــدقوا .

اللقاء الثانى : وهـــو ما يعرف فى التاريخ ببيعة العقبة الأولى(١٤) وحضرها من الأنصار اثنا عشر رجلا بايعوا النبى — عليه السلام — على الا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا اولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين ايديهم وارجلهم ، ولا يعصوه فى معروف . وبعث معهم النبى — عليه السلام — مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفتههم فى الدين(١٥) .

اللقاء الثالث : وكان مع النبى — صلى الله عليه وسلم — فى الموسم الثالث . وكان عـــدد الانصار ثلاثة وسبعين رجلا وامراتين بايعوه على أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم واهليهم واولادهم ، وعليهم أن يحاربوا معه الأسود والأحمر ، وأن ينصروه على القريب والبعيد . وشرط لهم الوفاء بذلك والجنـــة(١٦) .

وكانت كل هذه البيعات تتم شفاهة ولم ينقل فيها نص مكتوب .

وأهم ما يميز العهد المكى مما يتعلق بموضوعنا :

١ — انه كان عهد التاسيس العقدى والخلقى بعيدا عن التفصيلات والتفريعـــات .

٢ — أن العلاقات بين الداعية وهـــو رسول الله — صلى الله عليـــه وسلم — وغيره كانت — فى اغلبها الأعم — لا تخرج عن النطاق المحلى .

---

(١٤) يطلق الدكتور حميد الله على هـذه البيعة بيعة العقبة الثانية اما اللقـاء السابق فهو بيعة العقبة الأولى . [الوثائق السياسية ٢٨ — ٢٩] .

(١٥) سيرة ابن هشام ٣٢/٢ .

(١٦) انظر : حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ٣٢ . وانظر تفصيل البيعة فى ابن هشام ٣٧/٢ — ٤٦ .

٣ ــ ان العهود أو البيعات كانت شفوية لا تخضع لتقليد شكلى او نصى معين وكانت تتسم بالايجاز ووضوح المضمون وتحـــديده .

٤ ــ أن كل اولئك كانت تمهيدا طبيعيا لخطوة كبرى هى خطوة تكوين الدولة الاسلامية فى يثرب وكانت الهجرة فى وقتها المناسب الى مكانها المناسب المنشـــود .

* * *

فى المدينة : دولة الاسلام

والهجرة هـــذه المرة تختلف عن هجرة المسلمين الى الحبشة من عـــدة وجـــوه .. اذ كانت الهجرة الى الحبشة هـــدفها الأساسى البعـــد عن مكة ارض الظلم والاضطهاد والتعـــذيب والجبرية بحثـــا عن الأمان والســـلامة الذاتية . أما هجرة النبى ــ عليه السلام ــ الى مكة فلم تكن فرارا من أجل حماية النفس وان كان الحفاظ على الحياة وسلامة النفس مما يدعو اليـــه الدين . ولكن الهجرة كانت لهـــدف أساسى هـــو « نشر الدعوة وتوســـيع دائرتها » ... لقـــد أصبحت تربة مكة قاحلة شمطاء .. ترفض البـــذر ولا تقبل المـــاء ... وتحاول أن تخنق كل عـــود أخضر وتمتص كل نبـــات جـــديد ... نعم لابد من تربة جـــديدة ... ومعاناة جـــديدة وعمل متواصل حتى تؤتى الدعوة ثمارها.

وكانت الهجرة الى ما « هـــو اصلح » ، ولكنها لم تكن الى ما « هـــو أسهل » ... وآثر النبى أن يتحمل مزيدا من الأثقال والأعباء فى سبيل الوصول الى نتائج مثمرة . ومن يستعرض التاريخ يكتشف عجبا . يكتشف ان محمدا ــ عليه السلام ــ كان فى مكة يواجه عـــدوا واحـــدا يتمثل فى الكفار . ولكنه فى المدينة أصبح يواجه اعـــداء متعـــددين وجبهات متعـــددة .

هنــاك المنافقــون وعلى رأسـهم عبد الله بن أبى بن سلول الذى عاش طيلة حياته يغلى قلبه بالحقــد ، وتفــور نفسه بالنقمة لأن ذلك الوافــد الجــديد سحب « الأرض من تحت رجليه » و « حرمه تاج الملك » وكان قاب قوسين منه أو أدنى .

وهناك اليهود : خيبر وبنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع ... قبائل غنية منيعة تبحث عن « أمجاد مدفونة » وكانت تطمع أن يمالئها النبى الجــديد .. ولكن خاب فألهم . وبدأت عيون الروم والفرس تتجه نحــو المدينة ، وترصــد خطوات هــذا الوافــد الجــديد الذى غير موازين القوى وموازين العقيدة فى المنطقة .

اما قريش فما زالت على عــدائها ، بل ان حقــدها ازداد تضرما . وغضبها ازداد تسعرا ، فقــد عز عليها ن يفلت من قبضتها محمد ومن معــه من المستضعفين .

نعم خرج محمد الى « الأصلح والقابل » ولكنــه « الأعتى والأصعب » وهــذا هــو الفصيل الحاسم بين « الهجرة » بمفهومها التشريعى الانسانى ، والفرار بمفهومه المفزوع المهزوم ..

وفى المدينة انشأ محمد ــ عليه السلام ــ دولة بكل ما يتطلبه مفهوم الدولة ــ لا بالمعايير القــديمة ــ ولكن بما يشترطه القانون الدولى والفقــه الدستورى الحــديث فى وقتنا الحاضر . وهو حكم لا اسراف فيه ولا شطط .

دولة المدينة وطبيعتها :

لم يكن فى جزيرة العرب قبل البعثة دولة واحــدة تجمع شتاتها وكيانها تحت حكم واحــد وربما كان هــذا التفرق هــو السبب فى استعباد دولتى الفرس والروم للعرب طيلة قرون سبقت مجىء الاسلام .

كانت مدن الحجاز تستقل كل واحدة منها بنفسها ، ولا تعرف لغيرها سلطانا عليها ، كان ذلك شأن مكة وشأن المدينة وشأن الطائف ، كان لكل واحدة من هذه المدن استقلالها ونظامها ، وكان الحكم فيها متأثرا بالعوامل التاريخية التى تعاقبت عليها ، فكانت السلطة فى المدينة مثلا موضع تنازع دائم بين الأوس والخزرج واليهود ... أما مكة فقد تقاسمت الأسر الكبيرة فيها شئونها العامة ، كانت امور الكعبة لبنى هاشم ، وكانت امور الحرب لبنى مخزوم ، وكانت الديات والمغارم لبنى تيم وهلم جرا ...

وكان الخلاف فى مبدأ الحكم بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها أشد منه بين مدن الحجاز ، كانت اليمن قد اندمجت فى وحدة سياسية قبل البعثة بزمن غير قليل : وترجع وحدة اليمن السياسية الى اعتبارات اقتصادية تقتضى خضوعها لنظام مشترك كنظام اليمن ، اما فى اليمن فقد تحتم المصالح الاقتصادية المشتركة كقيام سد مأرب بأن توضع قواعد عامة للحكم يحترمها اهل البيئة جميعا .. ثم ان اليمن خضعت فى عهود كثيرة لأطوار سياسية لم يعرفها الحجاز : عدت الحبشة ، وعدت فارس على استقلال اليمن ، وأقامت فيها حاكما تخضع جميع أنحائها لسلطانه . كان طبيعيا ازاء هذه الاعتبارات أن يقوم فى أنحاء اليمن كلها على قاعدة معترف بها من اهلها جميعا ، ينفذها الحاكم بقوة القانون ان لم ينفذها الناس عن رضا واختيار .

ونظام القبائل فى البادية لم يكن يتفق ونظام الحضر فى اليمن او فى الحجاز ، بل كان الغزو والسلب تحت امرة رئيس القبيلة اساس الحياة عند البدو ، وكان رئيس القبيلة هو القاضى ، وهو القائد الأعلى ، وهو الذى يصرف شئون القبيلة ما جل منها وما دق . وطبيعى ان يستند مثل هذا النظام الى شخصية رئيس القبيلة وان يتأثر بمنطقه وحكمته(١٧) .

(١٧) انظر د. محمد حسين هيكل : الحكومة الاسلامية ٣١ - ٣٢ ، وانظر فى تفصيل ذلك الكتاب الأول من موسوعة التاريخ الاسلامى للدكتور احمد شلبى ٩٠ - ١٢٧ .

فماذا فعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد وصل الى المدينة مهاجرا ؟ لقد بدأ فى تكوين دولة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . والدولة بالمفهوم الحديث **جمع من الناس ، من الجنسين معا ، يعيش على سبيل الاستقرار على اقليم معين محدود ، ويدين بالولاء لسلطة حاكمة لها السيادة على الاقليم وعلى افراد هذا الجمع**(١٨) .

وقد نصت المادة الأولى من الاتفاقية الخاصة بحقوق الدول وواجباتها التى عقدتها الدول الأمريكية فى مونتفيديو فى ٢٦ من ديسمبر سنة ٩٣٣ على ما يأتى :

« يجب لكى تعتبر الدول شخصا من اشخاص القانون الدولى أن تتوافر فيه الشروط التالية :

١ — شعب دائم .

٢ — اقليم محدود .

٣ — حكومة .

٤ — أهلية الدخول فى علاقات مع الدول الأخرى(١٩) .

ودون اسراف أو تمحل نستطيع ان نقول أن **المجتمع الذى استقر** على ارض المدينة كان بوجود النبى — صلى الله عليه وسلم — **وعلى مدى** عشر سنوات — يمثل بكل معنى الكلمة دولة متكاملة توفرت لها كل الشرائط والأركان السابقة :

— فالمدينة رقعة من الأرض .. او اقليم له حدوده المميزة المعروفة عند سكانها وغيرهم .

---

(١٨) د. حامد سلطان : القانون الدولى العام فى وقت السلم ٣٤٣ .

(١٩) السابق ٣٤٥ .

— والشعب هو « الشعب المسلم » ... الذى كان قوامه الأوس والخزرج أو الأنصار الذين فتحوا صدورهم وقلوبهم للدين الجديد ، والمهاجرون الذين تركوا اموالهم وديارهم من أجل عقيدتهم . وقد جمع النبى — عليه السلام — بين هذه العناصر وصهرها فى بوتقة واحدة ، فربطت بينهم قيم الحب والايثار والاخاء . « وبهذه الألوان من التكافل والمشاركة يتحقق لمجتمع الاسلام ايجابية تجعله بتعبير الرسول — عليه السلام — كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ويتحقق له قوة التماسك بحيث يصير « كالبنيان يشد بعضه بعضا » والايجابية والتماسك ميزتان ضخمتان لا تتوافر لكثير من المجتمعات »[٢٠] .

— أما الحكومة فهى حكومة الرسول التى اعتمدت فى الحكم على ركيزتين صلبتين العدل والشورى .

— وكل أولئك جعل لهذه الدولة الجديدة أهلية كاملة فى التعامل كشخصية اعتبارية مع الآخرين .

* * *

البواعث والبدايات

وبوجود هذا الكيان الشرعى الجديد وهو الدولة الاسلامية وجدت مجموعة من العلاقات بعضها جديد لم يكن له وجود من قبل وبعضها كان له أصوله السابقة .

فمن العلاقات القديمة : علاقة النبى — صلى الله عليه وسلم — ومجتمع الكفار فى مكة وما حولها وان كانت هذه العلاقة قد تطورت

(٢٠) د. على جريشة : المشروعية الاسلامية العليا ٢٣٨ .

بالهجرة فتحولت من علاقة بين مجتمع كافر و « شخصية تحمل رسالة » وتتعرض للاضطهاد الى علاقة مرت بالمراحل الآتية :

١ ــ علاقة بين المجتمع المكى ومجتمع المدينة الذى لم تعترف قريش بمشروعية قيامه تحت قيادة محمد .

٢ ــ علاقة بين المجتمع المكى و « دولة » على رأسها محمد ــ عليه السلام ــ اعترفت بها قريش اعترافا ضمنيا بصلح الحديبية .

٣ ــ علاقة بين المجتمع المكى والدولة الجديدة مع الاعتراف الصريح بمشروعية هذه الدولة وانضمام سكان مكة الى « جماعة المسلمين » أو الى الشعب المسلم ، فصاروا أعضاء وخلايا فى هذا الجسد الواحد الذى اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ومن العلاقات الجديدة : علاقة الدولة الناشئة بالعناصر الدينية الأخرى مثل اليهود وهم عدة قبائل أو تجمعات حول المدينة لها قلاعها ومزارعها وتجاراتها وذهبها وأموالها .

ومن هذه العلاقات الجديدة كذلك علاقة السلطة وعلى رأسها الرسول ــ عليه السلام ــ بطائفة لم يكن لها نظير فى مكة وهى طائفة المنافقين التى كان على راسها عبد الله بن أبى بن سلول . ومنها علاقة الدولة الجديدة بالعالم الخارجى متمثلا فى حكامه وملوكه وشعوبه فى مصر والشام وفارس والروم .

هذه العلاقات المختلفة كان لزاما على الدولة الناشئة أن تحددها وتكيفها تبعا لاعتبارات مصلحية انسانية تتعلق بالدين والدولة والقيم والأخلاقيات الجديدة . واعتمد منطق هذه العلاقات على ركيزتين أساسيتين :

الركيزة الأولى : مستمدة من قوله تعالى « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى احسن ان ربك هــو أعلم بمن ضـل عن سبيله وهـــو اعلم بالمهتدين** »([21]) .

الركيزة الثانية : وهى مستمدة من قوله تعـالى « **اذن للذين يقاتلـون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقــدير** »([22]) .

والركيزة الأولى تمثل . الاصل الأصيل فى قائمة المبادىء الاسلامية : الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجـدال الشريف الحر بالتى هى أحسن ، دون اكراه فى الدين ، وقهر فى العقيدة .

فاذا لم يات الأسلوب الأول بالنتيجة المثمرة فالحرب هى الدواء المـر الذى لا منجى منه ولا هروب ، على حـد قول الشاعر :

والنـــاس ان ظلموا البرهان واعتسفوا

فالحرب اجـدى على الدنيا من السلم

وقـد بدأت حروب النبى — صلى الله عليه وسلم — فى السنة الثانية من هجرته من مكة الى المدينة المنورة ، فقاد الرسول القائد — عليه الصلاة والسلام — ثمانى وعشرين غزوة وبعث وسبعا واربعين سرية ، وكان من جملة ثمرات الغزوات والسرايا توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لـــواء الاســـلام([23]) .

كل هــذه العلاقات — الجـديد منها وما كان له جـذور واصول قـديمة فى حالتى السلم والحرب — كانت « الكتابة » فى شكل رسائل وعهود

---

(٢١) النحل ١٢٥ (وهى سورة مكية) .

(٢٢) الحج ٣٩ (وهى مدنية) .

(٢٣) محمود شيت خطاب : العسكرية العربية الاسلامية ٣٢ .

والفرق بين الغزوه والسرية ان الغزوة يقودها النبى — صلى الله عليه وسلم — والسرية يقـودها احـد قادته .

وتوصيات ومعاهدات وسيلة من وسائل تحديدها أو تطويرها . وكانت الكتابة وسيلة لانشاء حقوق جديدة ، أو انهاء التزامات قديمة قبل الدولة لجماعة أو افراد ، وكانت وسيلة كذلك لقطع أو انهاء مثل هذه العلاقات . وفى خلاصة مركزة كان وجود الدولة الجديدة ونموها المتزايد ومتطلبات هذا الوجود ومستلزمات هذا التطور سلما وحربا ... كل أولئك يمثل **البواعث والدوافع الحقيقية لانشاء الرسائل والكتب والعهود** وخصوصا ما يسمى بالرسائل العامة أو الديوانية[٢٤] .

فنجاح محمد — عليه السلام — فى الهجرة دفع قريشا الى ان تكتب الى عبد الله بن أبى سلول ومن معه من المنافقين يحرضونهم فيه على قتال محمد والا فان قريشا ستزحف اليهم لتقاتلهم ولكن هذا الكتاب لم يأت بالثمرة المرجوة ، فاتجهت قريش الى اليهود لنفس الغرض وكتبوا اليهم « **انكم أهل الحلقة والحصون ، وانكم لتقاتلن صاحبنا او لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء** »[٢٥] .

واقتضى حرص النبى — عليه السلام — على ترسيخ قواعد الدولة المركزية الجديدة الى تنظيم العلاقات التى تربط بين الدولة وبين قبائل اليهود المختلفة فكتب عهدا مفصلا بينه وبين اليهود ولعله اول كتاب تنظيمى كتبه النبى — عليه السلام — بعد وصوله الى المدينة .

والحرب النفسية كانت باعثا وراء كثير من الكتب وتدور حول فكرة أساسية هى التهديد والحديث عن القوة الذاتية والقدرة على تحقيق النصر واستئصال العدو ككتاب أبى سفيان الى الرسول وقت الخندق .

---

(٢٤) هى الرسائل التى يكون اطرافها شخصيات عامة من خلفاء وامراء وقواد على ان يكون موضوعها عاما يتعلق بامر من امور الدولة او هيئة او جماعة عامة كسياسة الحرب والسلام والتملك والتولية والعزل ورسم الخطط والتملك والاقطاع ... الخ .

(٢٥) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ٤٨ .

وهناك كتب العيون او التجسس ككتاب العباس بن عبد المطلب الى النبى – صلى الله عليه وسلم – يخبره فيه باستعداد قريش للزحف الى قتاله بعد هزيمتها فى بدر . وكذلك كتاب حاطب بن ابى بلتعة الى قريش يخبرها فيه بأن النبى – عليه السلام – يسير لضربها وفتح مكة .

وهناك كتب الصلح التى كان وراءها الحرص على السلام والاستقرار ، ومن أشهرها صلح الحديبية .

ثم هناك كان الباعث الأكبر وهو حرص النبى – صلى الله عليه وسلم – على نشر الدعوة لا فى بقية الجزيرة العربية فحسب بل خارج حدود الجزيرة ، فكانت كتبه للملوك والحكام وبعض القادة الدينيين مثل كسرى أبرويز والمنذر بن ساوى عامله على البحرين والمقوقس عظيم القبط فى مصر وغيرهم .

وهناك كتب الاقطاع والهبات – ان صح هذا التعبير ... وهى كتب تسجل حقوقا لبعض الجماعات أو القبائل قبل الدولة ، ككتاب النبى – عليه السلام – « للداريين » وفيه يقطعهم قرية عينون وبيت حبرون والمرطوم وبيت ابراهيم .... » .

وقد يرتب الكتاب حقا لشخص بعينه على سبيل الحصر ككتاب الأمان الذى منحه لسراقة بن مالك قبل الهجرة وهو يلاحقه هو وصاحبه أبو بكر لردهما الى قريش . وفيه بعده بسوارى كسرى بن هرمز .

وهناك الكتب التشريعية التى يفصل فيها الشارع – وهو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثيرا من قواعد الدين وأركانه وخصوصا الزكاة كما نرى فى كتابه الى ملوك حمير .

ولكن هناك من الرسائل ما كان وراءه « الباعث الانسانى البحت » بعيدا عن امور الدولة ومصالح الجماعات والأفراد ، ومن أرقاها كتاب النبى — صلى الله عليه وسلم — الى معاذ بن جبل — وهو واليه باليمن — يعزيه فى ابن مات لـه ، وهى من أعمر الرسائل بالايمان والتعاطف وصدق المشاركة الوجدانية بين الانسان القائد واحد ولاته الذين كان يحبهم ويعتز بهم(٢٦) .

* * *

والخلاصة ان الكتب فى عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — واغلبها للرسول عليه السلام — كان وراءها أو الدافع الأول اليها هو « **وجود الدولة** » ونموها ، ونشوء عدد من العلاقات الجديدة بين الدولة الجديدة والمجتمعات الأخرى . وبين الدولة كشخصية اعتبارية والأفراد كشخصيات طبيعية(٢٧) . كما كان هناك بواعث انسانية وراء بعض هذه الرسائل مما سنفصل فيه القول فى الفصل الثالث الذى يعرض لأنواع الرسائل ووجهاتها وموضوعاتها ومضامينها .

---

(٢٦) والرسالة تعتبر رسالة خاصة او شخصية على الرغم من ان طرفيها شخصيتان عامتان وذلك لأن محورها الموضوعى امر خاص هو التعزية فى وفاة .

(٢٧) يفرق رجال القانون بين الشخص الطبيعى والشخص الاعتبارى ويعرفون الأول بانه من يصلح لاكتساب الحقوق وتحمل الواجبات ، وتثبت الشخصية لكل انسان بوصفه هذا . ويبدأ الشخص الطبيعى او بعبارة أخرى تبدأ الشخصية بتوافر شرطين الولادة والحياة . اما الشخص المعنوى او الاعتبارى فيعنى « مجموعات من بنى الانسان اجتمعوا سويا ابتغاء تحقيق غاية معينة بحيث تكون منهم وحدة لها وجود مالى او سياسى مستقل عن وجود كل واحد منهم .... » والقانون يعتبر « الدولة » شخصية معنوية عامة ، اما فروعها ومؤسساتها فشخصيات معنوية خاصة [انظر : د. عبد الحى حجازى : نظرية الحق ص ٩٤ – ٩٧ ، ص ١٥٤ – ١٥٧] .

الفصل الثالث

الموضوعات والمضامين

(١) المعاهدات وكتب الصلح
بين المسلمين واليهود[١]

كانت بيعتا العقبة — وقد سبقهما لقاء عابر بين النبى — صلى الله عليه وسلم — والأنصار — تمهيدا طبيعيا لهجرة موفقة الى المجتمع الجديد . ولا شك أن هاتين البيعتين ألقتا لونا من الطمانينة فى قلوب المسلمين المستضعفين فى الأرض .

ولكن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان يدرك ببصيرته الواعية أن ما بين الأوس والخزرج من ثئور واحن ، وما سينشأ عن الوضع الجديد من نشوء جبهة موتورة هى جبهة المنافقين على راسها عبد الله بن أبى بن سلول ، وان التجمعات اليهودية فى المنطقة لن تستريح لهذه الأوضاع الجديدة التى يحتمل ان تضعف من كيانها السياسى والاجتماعى وتهز ثقة الأوس والخزرج فيها . وهو يعلم أن اليهود كانوا يهددون به اهل

(١) ننبه ابتداء الى اننا فى حديثنا عن الكتب والعهود والرسائل فى هذا الفصل سيكون تركيزنا الأساسى على ما تحويه من فكر ومبادىء وقيم دينية وسياسية واجتماعية فى ضوء الظروف والأحوال التى نشات فيها ، والبواعث التى ادت الى انشائها ، وما ترتبه من حقوق وواجبات ، ودلالة كل اولئك على شخصية اطرافها وقدراتهم النفسية والعقلية والسياسية مرجئين الحديث عن الخصائص الفنية عن هذه الكتب والرسائل الى الفصل التالى كما اعلنا من قبل .

المدينة ، ويوهمونهم انه نبى من انبيائهم وانهم ستكون لهم السيادة على المنطقة به :

قال ابن اسحق :

ان يهود كانوا معهم (أهل المدينة) فى بلادهم ، وكانوا اهل كتاب وعلم ، وكانوا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد عزوهم[٢] ببلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم : ان نبيا مبعوث الآن ، قد اظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم .... »[٣] .

واتت هذه المقولة التى ما فتىء اليهود يرددونها بعكس ما رجاه اليهود ، فقد كانت هى الحافز الأكبر لاسلام عدد من الأنصار فى اول لقاء بينهم وبين النبى ، فقد قال بعضهم لبعض عندما عرض النبى نفسه عليهم فى الموسم « يا قوم انه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه .. فاستجابوا لله ولرسوله وآمنوا وصدقوا »[٤] .

فمجىء النبى الى المدينة وفهم الأنصار لحقيقته وحقيقة دعوته « ابطل حجة اليهود » أو « حرق الورقة » التى ظلوا يلوحون بها للأنصار ويهددونهم بها عشرات من السنين .

وثمة حقيقه أخرى اشرنا اليها من قبل وهى ان قريشا لم ترد للمجتمع الجديد ان يستقر ، ولاحمد ان يكون له المقام الهادىء فى المجتمع الجديد ، فبدءوا بكتب اشرنا الى أحدها تمزج بين الوعد والوعيد يؤلبون فيها الأنصار واليهود على النبى وصحبه .

والخلاصة أن النبى — عليه السلام — هاجر الى المدينة واستقر بها ،

---

(٢) عزوهم : غلبوهم .
(٣) سيرة ابن هشام ٢٩/٢٢ .
(٤) امتاع الأسماع ٣٢ .

وأصبح قوام المجتمع او القوى الاجتماعية فى المدينة تتمثل فى الجماعات الآتية :

١ ـ المهاجرون من المسلمين واغلبهم خرج من مكة خالى الوفاض ليس معه صامت او ناطق ، بعد ان تسللوا من مكة الى المدينة خفية خوفا من بطش قريش .

٢ ـ الأوس والخزرج الذين عرفوا تاريخيا بالأنصار .

٣ ـ المشركون المدنيون من الأوس والخزرج وهؤلاء هم الذين بقوا على شركهم .

٤ ـ المنافقون وعلى راسهم ابن سلول .

٥ ـ اليهود بقبائلهم المختلفة[٥] وكانوا كما قلنا اهل ثراء يثمرون اموالهم بالربا ويصنعون السلاح ويبيعونه للعرب الذين لا تنتهى حروبهم وكانت أكثر الأراضى والبساتين بايديهم[٦] .

---

(٥) كان بنو قينقاع يقيمون داخل المدينة ، ويقيم بنو قريظة فى فدك ، وبنو النضير على مقربة منها ، ويهود خيبر فى شمالها [حياة محمد ٢٣٦] · والثابت تاريخيا أن اليهود فى هذه المنطقة ليس لهم اى اصالة جنسية او مكانية فى هذه المنطقة فهم « يهود تعربوا وليسوا عربا تهودوا » ـ ان صح هذا التعبير · يقول ر· ف· بودلى فى كتابه : الرسول · حياة محمد ص ١٤٨ « لقد كان اليهود منذ ازمان سحيقة عرضة دائما للطرد من وطنهم (فلسطين) الذى استولوا عليه اصلا بالقوة ، ولنذكر بعض الذين طردوهم ، فهناك سرجون الثانى سنة ٧٢٢ ق·م ، وبختنصر سنة ٥٨٦ ق·م ، وبومبـاى سنة ٦٣ ق·م ، وطيطس سنة ٧٠ ميلادية ، وطردهم هارديان طردا نهائيا سنة ١٣٥ م ···· فكلما وقع اضطهاد لليهود رحل المضطهدون الى ممالك اخرى ، وقد تغلغل كثير منهم فى جزيرة العرب ، فبعد ان نهب طيطس بيت المقدس استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة او يثرب كما كانت تسمى · تلك القبائل هى بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير ، وحولوها الى معقل زراعى ···· » ·

(٦) د· أحمد شلبى : الكتاب الاول من موسوعة التاريخ الاسلامى ٧٥ ·

أما القوى الخارجية فتمثلت فى القوى الآتية :

١ ــ مشركو الجزيرة العربية بعامة ومشركو قريش بخاصة وقــد بدءوا يحرضون عليه قــوى الأوس والخزرج واليهود .

٢ ــ قــوى الفرس والروم وقــد بدأ اسم النبى الجــديد يتسرب ويتردد عبر القبائل التى كانت تدين لهاتين الدولتين بالبيعة .

* * *

كان النبى على وعى كامل بحقيقة هــذا الوضع .. ومن ثم كانت المجابهة المسلحة المباشرة والفورية لأية قــوة من هــذه القــوى لا تخطر له فى بداية وجــوده فى المدينة لعــدة اسباب هى :

السبب الأول : يتلخص فى أن المسلمين كانوا يعيشـون « دور النقاهة » الاجتماعية بعــد التعــذيب والمطاردات والاضطهادات فمن الناحية الواقعية لم يكن وضعهم فى الشهور الأولى يؤهلهم لمجابهة واسعة . فكانوا فى حاجة الى فترة يلتقطون فيها أنفاسـهم ، ويلمون فيها شعثهم ، ويسـتعيدون فيها قــوتهم .

والسبب الثانى : أن القتال لم يكن قــد شرع بعــد(٧) ، فلم يؤذن

---

(٧) كان قـوله تعالى « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقـدير » الحج ٣٩ اول ايحاء بمشروعية القتال .. ويقال ان سبب نزولها كما يروى عن ابن عباس انها نزلت فى محمد واصحابه حين اجرجوا من مكة اذ قال ابو بكر اخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعون ليهلكن . فانزل الله عز وجل « اذن للذين .... » قال ابو بكر فعرفت انه سيكون قتال . وزاد احمد : وهى اول آية نزلت فى القتال [السيوطى : اسباب النزول ١٢٠ ــ القرطبى ٤٤٥٩/٥ ــ مختصر تفسير ابن كثير ٥٤٧/٢] . وننبه هنا الى ان سورة البقرة هى اول السور بالمدينة نزولا باتفاق إما سورة الحج فهى السابعة عشرة فى الترتيب النزولى بالمدينة . والآية ٢١٦ فى سورة البقرة (كتب عليكم القتال ....) أول آية نزلت بفرض القتال . وهــذا الترتيب النزولى يقتضى فى الظاهر ان تكون فرضية القتال قــد نزلت قبل « الاذن به » وهــذا ما لا يقبله العقل ويناقض طبيعة الاسلام ومنهجه التشريعى فى التدرج . لذلك نرجح أن آية الحج فى الاذن بالقتال والآيتين التاليتين لهــا قــد نزلت على النبى وهــو فى طريقه من مكة الى المدينة مهاجرا او بعــد استقراره بالمدينة وقبل نزول سورة البقرة وهى اول سورة مدنية كما ذكرنا آنفا .

للمسلمين بالقتال طيلة بقائهم فى مكة[٨] . ثم نزلت آية الحج « **اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير** » نهى على اليقين لم تنزل فى مكة ، انما هى مدنية ، أو على الأقل نزلت والنبى فى طريقه الى المدينة . والمقطوع به انها نزلت قبل اول لواء عقده الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وكان ذلك على راس سبعة أشهر من مقدمة بالمدينة[٩] .

وعبارات المؤرخين تدل على أن « معاهدة الصداقة والموادعة » عقدت قبل الاذن بالقتال وكانت بالتأكيد قبل أول سرية بعث بها النبى اى فى الأشهر الأولى من وصول النبى الى المدينة[١٠] .

وحتى على فرض نزول الاذن بالقتال قبلها فالقوم لم يظهر منهم ابتداء ما يوجب قتال النبى لهم . وبذلك يثبت الرسول بصورة عملية أن السلام هو الأصل فى الاسلام .

أما السبب الثالث : فهو ان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أراد أن يثبت لهذه القوى جميعا ان الحرب ليست هدفا فى ذاتها ، وان هدفه الأول هو اقرار السلام والقيم الانسانية ، فكان اول ما انصرف اليه تفكيره تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم للقضاء على كل شبهة فى أن تثور

---

(٨) يقطع بذلك ما كان بعد بيعة العقبة الأولى (قبل الأخيرة) من قول العباس بن عبادة احد الانصار المبايعين ــ والله الذى بعثك بالحق أن شئت لنميلن على اهل منى غدا باسيافنا فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم ــ قائلا لم نؤمر بذلك [ابن هشام ٢/٤٤] . هذا وقد رد ابن القيم بحجج دامغة على من ذهب ــ وهو مذهب شاذ ــ الى أن آية الاذن بالقتال مكية وكذلك سورة الحج [انظر زاد المعاد ٢/٥٨] .

(٩) كان قائد السرية عمه حمزه بن عبد المطلب على ثلاثين راكبا نصفهم من المهاجرين والنصف الثانى من الأنصار فبلغوا سيف البحر يعترضون عيرا لقريش قد جاءت من الشام تريد مكة ، فيها أبو جهل فى ثلاثمائة راكب ، ولكن لم يقع قتال لتوسط مجدى بن عمرو الجهنى بين الفريقين [انظر امتاع الأسماع ٥١] .

(١٠) يدل على ذلك عبارات المؤرخين مثل ما جاء فى امتاع الاسماع ... لما قدم (النبى عليه السلام) المدينة مهاجرا وادعته يهود كلها وكتب بينه وبينهم كتابا ... الخ [ص ١٠٤] .

العـداوة القـديمة بينهم ، ولتحقيق هـذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا فى الله اخـوين أخـوين »[١١] .

وقـد اطمأن محمد الى وحـدة المسلمين بهـذه المواخاة وهى ولا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقـدير وبعـد نظر متين مقـدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المنافقين الوقيعـة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لافساد أمرهم . لكن العمل السياسى الجليل حقا والذى يدل على اعظم الاقتدار ، وذلك ما وصل اليه من تحقيق وحـدة يثرب والى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف[١٢] .

مبادىء سياسية وقيم اجتماعية :

وقـد تضمن الكتاب[١٣] كثيرا من المبادىء والقيم والحقوق السياسية والاجتماعية تتلخص فيما يأتى :

١ ــ ابقاء الحال على ما كانت عليه : وقـد استخدم الكتاب للتعبير عن هـذا المبدأ عبارة « **المهاجرون من قريش على ربعتهم[١٤] يتعاقلون[١٥] بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين** » ثم كرر العبارة ذاتها دون تغيير فى كلماتها فذكر كل اطراف المعاهدة تفصيلا مقترنين بهذا المبدأ « **وبنو عـوف على ربعتهم ....** » . **وبنو الحارث على ربعتهم ...** » وبنو ساعدة ... ، وبنو جشم ... ، وبنو النجار ... ، وبنو عمرو

(١١) حيـاة محمـد ٢٣٦ .
(١٢) السـابق ٢٣٨ .
(١٣) انظر نصه فى سيرة ابن هشام ٨٨/٢ ــ ٩١ .
(١٥) الربعة والرباعة (بفتح الراء) الشأن والحال يريد انهم على امرهم الذين كانوا عليه من قبل من اداء العقول والديات وغيرها . والربعة ايضا قسمة البلدة فتشتمل على منازلهم ومسـاكنهم .
(١٥) المعاقل : الديات . والتعاقل هـو اعطاء المعاقل : ويقصد يكونون على ما كانوا عليه من اخـذ الديات واعطائها .

ابن عـوف ... ؛ وبنو النبيت ... ، وبنو الأوس ... الخ · وابقـاء الحال على ما كانت عليه ــ وقـد عبر عنها الكتاب بقوله (على ربعتهم) فيما يتعلق بالمسكن والأرض والحقوق المكتسبة فى الجاهليـة والارتباطات والعلاقات الاجتماعية والسياسية وما فى الذمم من حقوق وديون وديات ... الخ ــ مسألة حيوية وضرورية لاستقرار المجتمع الجـديد حتى لو كان فى ذلك ما يتعارض مع الشريعة الاسلامية وما سيحرمه الاسلام فيما بعـد كالربا مثلا ، وهـذ االمنهج يتفادى الهزاهز التى يمكن ان تصيب المجتمع بسبب اجراء او تنظيم فجائى . وهـو منهج يتفق مع فلسفة الاسـلام ومنهجه القيم فى التدريج التشريعى(١٦) .

كما نلاحظ ان الكتاب قـد كرر العبارة بنصها تسع مرات بعـدد البطون التى شملتها المعاهـدة وكان من الممكن ادراجها كلها تحت عبارة واحـدة بلا تكرار . ولكنى أعتقد ان هـذا التكرار فى هـذه المسألة يرجع الى سببين :

السبب الأول : أهمية المسألة وحيويتها بالنسبة للمجتمع .

السبب الثانى : تاكيدها وترسيخها ومنع التاويل والخروج بالنص عن المضمون الذى قصـد اليه .

٢ ــ **تقرير مبدأ الاخـوة والتعاون بين المؤمنين** : وعلى الرغم من أن الأخـوة الدينية بين المسلمين هى ــ بالدرجة العليا ــ صلة روحية تشتمل على وحـدة العقيدة الدينية الا ان العلماء المجتهدين فى عصور الاسـلام الأولى قـد اعتبروها المعيار الحاسم فى تكوين الدولة الاسلامية ، والضابط الحتمى الذى يفصل بينها وبين غيرها من المجتمعات الانسـانية التى تدين

---

(١٦) انظر جابر قميحة : المدخل الى القيم الاسلامية · الفصل الثانى من الكتاب (٤١ ــ ٩٥) وخصوصا الصفحات (٤٢ ــ ٥٦) ·

بغير الاسلام . فالدولة الاسلامية فى تكوينها دولة متحـــدة على اساس ان حكم الاسلام يسودها ، وأن ولايته الشخصية تمتد الى الأمصار التى يعيش على اقاليمها البشر الذين تربط بينهم « الأخـــوة الدينية الاسلامية » . وهى لا شك تعـــد اول مثال للدولة المتحدة أو الدولة « الفيدرالية » .... ولمـا كانت « الأخـــوة الدينية الاسلامية هى المعيار الحاسم فى تكوين الدولة الاسلامية فانه قـــد ترتب على ذلك ـــ بحكم المنطق وبحكم الضرورة ـــ ان تعتبر هـــذه الأخـــوة الدينية الضابط الذى يميز على مقتضاه بين الجماعة الاسلامية وغيرها من الجماعات الانسانية الأخرى التى لا تقوم فيها هـــذه الصلة الروحية(١٧) .

والأخـــوة الاسلامية هنا ليست مجرد شعور وشعار ، ولكنها كانت رابطة وثيقة تولد عنها التزامات متعـــددة نص الكتاب عليها خلاصتها :

(أ) تحمل دين المسلم والالتزامات المـــالية الأخرى .

(ب) التعاون على البر والتقوى ، ومواجهة البغى والاثم والعدوان .

(جـ) لا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وهم موالى بعضهم .

(د) لا ينصر المؤمن قاتلا أو مجرما أو يؤويه .

وهـــذه الالتزامات هى روح القاعـــدة التى يقوم عليها البناء السياسى فى الاسلام « وهى الأمة أو الجماعة وهى جماعة الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بروابط الدين ، وجميع أفراد هـــذه الأمة متساوون ، لا فرق بين كبير وصغير ، وانما يكون فى نوع العمل ، والله وحده رب هذه الجماعة وحاكمها ، وحكمه فيها مباشر بلا وساطة . ويحـــدد نظامها الداخلى ويؤمنه رضى افرادها جميعا باحكام الله وخضوعهم لها وطاعتهم لراس الجماعة .. »(١٨) .

(١٧) د. حامد سلطان : احكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية ١٥٧ .
(١٨) شاخت وبوزورث : تراث الاسلام ٣٦ .

٣ — **الحرية الدينية** : وهى حرية العقيدة واقامة الشعائر دون الاضرار والاساءة للغير « **لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم** » واستثنت المعاهدة من هؤلاء « **من ظلم واثم ، فانه لا يوتغ**(١٩) **الا نفسه واهل بيته** » .

٤ **قيام التلاحم والتعاون بين المسلمين واليهود** :

وقد عبرت المعاهدة عن ذلك بعبارة « **ان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين ....** » ولاهمية هذا العنصر من عناصر هذا الكتاب يأتى التفصيل او ذكر الجماعات والبطون التى تتمتع بهذا الحق على نسق ما ذكر فى أول الكتاب ... « **وان ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف . وان ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ... الخ** » .

وقد نص النبى — عليه السلام — فى هذا الكتاب على ما يقتضيه هذا التلاحم أو ما يمكن أن نسميه بالتعبير الحديث : « **وحدة الأمة بكل عناصرها** » . وهى التزامات متبادلة واهمها :

(أ) التزام اليهود بمعاونة المؤمنين فى حالة الحرب ، وذلك بالمال والسلاح والمؤن ، اى — كما قال الكتاب — « **يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين** » وقد كرر هذا النص لاهميته مرتين .

(ب) مناصرة المسلمين لليهود ومواساتهم بكل السبل والوسائل الممكنة « **... وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا تناصر عليهم** »(٢٠) .

٥ — **الجهاد واجب على الجميع لا تنفرد به طائفة دون طائفة** . بل على الكل أن يساهم فى هذا الواجب مناوبة .

٦ — **المؤمنون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم ادناهم ، وهم يدعى من سواهم** .

---

(١٩) يوتغ : يهلك .

(٢٠) الأسوة هنا بمعنى المواساة والمعالجة ، وواساه : عالجه .

٧ — القاتل يقتل الا اذا رضى ولى الدم بالعقل (الدية) .

٨ — لا تزر وازرة وزر أخرى « لا يأثم امرؤ بحليفه ... » .

٩ — ضرورة رعاية حــق الجار .

١٠ — الشعور بالأمان حــق للجميع سواء أبقى الشخص بالمدينة ام خرج منها « الا من ظلم وأثم » .

١١ — « على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم » اى على كل مواطن ان يتحمل نصيبه الذى يلتزم به لصالح الجماعة .

١٢ — ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حــدث او شتجار[٢١] يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله وان الله على اتقى ما فى هـــذه الصحيفة وابره » .

وهـــذا النص الأخير يشير الى تلك الواقعة التى لا يوجـد فى النص ما يصـــدق عليها او ما يعتقد الأطراف او بعضهم أن ما ينص عليـــه الكتاب لا يتسع لهـــذه الواقعة ... وزيادة على « الواقعة » التى تثير النزاع .. يشير الى « جهة الاختصاص » التى لهـــا الحكم النهائى فى هـــذه الحـــال وهـــو ما يشـــبه ما يسمى حـــديثا فى القـــانون المحلى والقـــانون الدولى « بالاحالة » فى الحكم أو ما يسمى « بالتفويض » أو « بالاحالة الداخلية » وبمقتضاها يعين قانون الدولة من الشرائع المطبقة فيها شريعة يوجب تطبيقها بمقتضى قاعـــدة من قواعـــد تنظيم التنازع الداخلى ما بين القوانين[٢٢] .

وقـــد نص الرسول — صلى الله عليه وسلم — على جهة « الاحالة » أو « التفويض » فى حالة وقوع حـــدث أو خلاف « يخاف فساده » وجهـــة

---

(٢١) تنـــازع وخـــلاف .

(٢٢) اقرأ شرح نظرية الاحالة والفرق بين الاحالة والتفويض والسور المختلفة لهما كتاب « تنازع القوانين » للدكتور جابر جاد عبد الرحمن ٦١٣ — ٦١٧ .

واقرأ فى قواعـد تفسير النصوص القانونية عند الخلاف بين الأطراف وتطبيقات ونمـــاذج لهـــا . د. سلطان : القانون الدولى العام فى وقت السلم ٧٨ — ٨٢ .

الاختصاص هنا هى (الله ورسوله) أى القرآن والسنة بانواعها المختلفة[٢٣] والأمر لا صعوبة فيه وخصوصا ان صاحب التشريع — وهو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حى يسعى بالهداية بين الناس . وقد تبلورت هذه القاعدة فى قوله تعالى : « **يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير واحسن تاويلا** »[٢٤] .

* * *

واهم السمات الموضوعية التى نسجلها لهذا الكتاب :

١ — **الشمولية** : فهو لم يأخذ اتجاها واحدا ينحصر فى جانب واحد أو شريحة اجتماعية أو سياسية واحدة ، ولكنه نص على كثير من القواعد والمبادىء السياسية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية حتى أنه ليصلح أن يمثل دستورا متكاملا للمجتمع الجديد فى مناحيه المتعددة .

٢ — **عمومية النصوص** : فليس فى الكتاب « فرعيات » أو مسائل خاصة ، أو وقائع محددة ، أو ذكر اشخاص طبيعيين ، انما هى قواعد عامة شأنها شأن القواعد الدستورية فى النظام الوضعى وهى القواعد التى يحويها الدستور « وهو الوثيقة الأساسية التى يبين فيها صاحب السيادة شكل الحكومة وينظم فيها السلطتين التنفيذية والتشريعية ويحدد اختصاصهما ، أو تلك الوثيقة التى تبين نظام الحكم فى الدولة »[٢٥] .

٣ — **مراعاة الواقع الاجتماعى والتاريخى لفئات المجتمع المدنى** فقد كان التركيز مكثفا على قيم الأخوة والتعاون والتكافل وتحمل الديات

---

(٢٣) السنة أنواع ثلاثة : سنة قولية وهى ما كان حديثا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسنة فعلية : اى ما اتاه من اعمال مختلفة ، وسنة تقريرية اى ما رآه من فعل الغير وما سمعه من اقوالهم وسكت عنه .

(٢٤) النساء ٥٩ .

(٢٥) د. ثروت بدوى للنظام الدستورى العربى ٢٩ ويطلق على الدستور كذلك اصطلاحى « النظام الدستورى والقانون الدستورى » .

... الخ فالمعروف تاريخيا ان النبى – صلى الله عليه وسلم – دخل المدينة وبين الأوس والخزرج دماء وثئور من ايام بعاث[٢٦] ، والتسلط اليهودى على سكان المدينة قائم وخصوصا فى المجال الاقتصادى احتكار واستغلالا واستنزافا .

٤ – وهناك سمه شكلية ولكنها ذات هدف موضوعى يدل على بعد نظر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهى **اختيار « القالب الكتابى »** . ولم يلجأ الى الاتفاق او التعاهد الشفوى كما حدث فى بيعات العقبة وذلك لتعدد الأطراف واتساع قاعدتهم فالمسالة ليست تعاهدا بين الرسول وعشرات من الناس ولكن المسألة اصبحت تتعلق بشعب « ذى فئات » متعددة . ومشارب مختلفة ، ولا يكفى التوجيه الشفوى أو العرف الجارى لسياسة الأمور وحكم الناس « فالقواعد المكتوبة تفضل العرف من نواح معينة : فهى تمتاز بالوضوح وتحديد الأحكام بصورة تجبر الحكومات على احترامها وعدم الخروج عليها ، على خلاف العرف الذى لا يمكن أن يرقى الى نفس الدرجة من الوضوح والتحديد ، بل يشوبه الغموض وعدم التحديد فى بعض الأحيان ، خصوصا فى فترة التكوين وبالتالى يسهل على الحكام التملص من احكامه والزيغ عن قواعده . كما أن القواعد المكتوبة تكون أسهل مدخلا الى اذهان الأفراد من القواعد العرفية ، لأن نصوصها فى متناول الجميع ، فيسهل على المحكومين معرفة حقوقهم ومدى السلطات التى يقررها الدستور للحكام عليهم . وأخيرا فان القواعد الدستورية المكتوبة يسهل وضعها بسرعة على خلاف العرف الذى يستغرق زمنا طويلا لتمام نشوئه واستقراره . وبذلك يستطيع الدستور المكتوب ان يتجاوب مع حاجات المجتمع الى انشاء قواعد جديدة او الى تعديل القواعد القائمة فى سرعة ويسر كبيرين لا يتوافران فى العرف »[٢٧] .

---

(٢٦) بعاث كانت معركة عاتية بين الأوس والخزرج فى الجاهلية وكان من عادة اليهود ان يذكروا رجال القبيلتين بما حدث فى هذا اليوم حتى تثور فى قلوبهم الاحن والبغضاء ويظلوا دائما على عداوة .

(٢٧) ثروت بدوى : النظام الدستورى ٨٧ .

فحرص النبى – صلى الله عليه وسلم – على استقرار الأمور ووضوح القواعد وتحديدها وخصوصا فى طور نشوء الدولة كان هو الباعث على تقديم هذه الوثيقة الدستورية الرائعة ، ولا يتحقق ذلك الا اذا كانت مسجلة مكتوبة .

واخيرا نشير الى ملاحظة شكلية قد لا تلفت انظار احد ، وهى تتلخص فى امرين :

الأول : أن أطراف الكتاب أو طرفيهم : هما : المسلمون وعلى رأسهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واليهود بالمدينة وما حولها . ومع ذلك لم يكن الكتاب فى هيئة « عقد » أو « اتفاقية » يقررها الطرفان ويتناقشان فيما يتفق عليه . ولكنه جاء – كما قال ابن اسحق : كتابا كتبه الرسول – عليه السلام – بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

الثانى : ن هذا الكتاب ، او الكتاب الدستورى كان بادرة من النبى – عليه السلام – – وبتعبير آخر لم يطلبه أحد . فهل يعد ذلك من قبيل « الدستور المنحة » الذى يصوغه الحاكم المستبد على هواه و « يمنحه » لشعب ، متفضلا ممتنا عليهم به ؟

وفى مقام الرد على هذه الشبهة أو هاتين الشبهتين نبرز الحقائق الآتية :

١ – الواقع أنه ليس هناك أطراف متعددون او « شخصيات معنوية » متعددة ، فالكل على اختلاف الوانهم واديانهم بدخول النبى – عليه السلام – المدينة أصبحوا « رعايا » فى الدولة الجديدة . فهذا المسلك من النبى – عليه السلام – ايحاء بوحدة الدولة ، أو بنشوء الدولة الواحدة . وقد نص الميثاق على ذلك فى قوله « **وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وانفسهم** » .

٢ — أن النبى — عليه السلام — سارع الى تقــديم هــذه الوثيقة لاثبات « حسن النية » وحرصه على الموادعة والسلام .

٣ — ان هــذه الوثيقة لا ترغم أحــدا على الدخول فيها والالتزام بها من اليهود بصفة خاصة ، ونص الوثيقة صريح فى ذلك كما يظهر فى قــوله « **وانه من تبعنا من يهود فان له النصرة والأسوة** » .

٤ — ليس فى الوثيقة اى نوع من القهر أو الاجبار أو العــدوان على حق احــد ، ومن يقرأ الوثيقة وينعم فيها النظر يكتشف أن ما فيها من اثبات الحقوق لليهود — بصفة خاصة — أكثر بكثير مما نصت عليه من التزاماتهم نحــو الدولة الجــديدة والجماعات الأخرى .

بين النبى وكفـــار مكة

صـــلح الحـــديبية[٢٨]

بين كتاب الموادعة السابق بين النبى والمسلمين من جانب واليهود من جانب آخر كان هناك ست سنوات مشحونة بالأحداث الجسام . وخصوصا فيما يتعلق بالانجازات الحربية . فقــد أرسل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عــددا من السرايا الى جهات متعــددة من الجزيرة احرزت عــدة انتصارات وزادت من تثبيت هيبة الدولة الجــديدة .

وخلال هــذه المدة دارت عــدة معارك بينه وبين قريش كان اهمها بدر وأحــد والخندق . ولو نظرنا الى حصيلة هــذه المعارك مجتمعــة

(٢٨) تذكر كتب السيرة والحـديث أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العام السادس من الهجرة راى فى المنام انه دخل البيت الحرام ، وحلق راسه ووقف بعرفة ، فاستنفر المسلمين والعرب الى العمرة ، وليس معهم الا السيوف فى اغمدتها ، وساقوا معهم الهـدى ، وكان ذلك فى ذى القعدة . فلما علمت قريش بذلك خرجت بخيلها ورجلها ومن تابعها لمنع النبى ومن معه من دخول مكة ولو بقوة السلاح ، ونزل النبى ومن معه بالحـديبية على بعـد تسعة اميال من مكة ، واعلن النبى ابتداء حرصه على تجنب الحرب فاعلن امام اصحابه « اما والله لا يسالوننى اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله الا اعطيتهم اياها » . وتعددت بعثات قريش الى الرســول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهــو لا يفتا يردد انه ما جاء لقتال انما جاء لزيارة بيت الله الحرام وان يقاتل الا من قاتله . واراد ان يؤكد هــذا المعنى فبعث بعثمان بن عفان الى قريش يشرح لهم الهـدف الذى جاء المسلمون من اجله ، فلما غاب عثمان تردد ان قريشا قد قتلتــــه ، فلبس المسلمون السلاح ، وبايعهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الموت من اجل عثمان ، ولكن ظهر عثمان . وراى سفراء قريش وعلى راسهم سهيل بن عمرو حماسة المسلمين والتفافهم حــول النبى ـ عليه السلام ـ فعادوا الى قريش واخبروا القوم بما راوا ، فاشار اهــل الراى منهم بالصلح على ان يرجع محمد وصحبه الى المدينة هــذا العام ويعودوا من قابل . ورجع سهيل ومعه حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص .. وطال الحـديث بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وتم الصلح فى صورته المعروفة وكان وقعة على المسلمين هــو شعورهم الحاد بالحزن والأسى « لأنهم خرجــوا ، ولا يشكون فى الفتح لرؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه حلق راسه ، وانه دخــل البيت فاخــذ مفتاح الكعبة ، وعرف مع المعرفين ، اى وقف بعرفة مع الواقفين [انظر امتاع الأسماع ٢٧٧ ـ ٢٩٥] .

لوجدنا كفة المسلمين ارجح ، حتى معركة احد لم تحرز فيها قريش نصرا حاسما ، كما كان فيها من الدروس والعبر التى افادها المسلمون الشىء الكثير(٢٩) .

واستطاع النبى — عليه السلام — أن يتخلص من رءوس يهودية ابدت عن نواجذ الشر والخيانة والغدر : من اشهرهم أبو عفك وكعب بن الأشرف واسير بن زارم . وبعد أن نقض اليهود كتاب الموادعة وغدروا وخانوا وحاولوا اغتيال النبى — صلى الله عليه وسلم — واعانوا عليه الكفار ، طرد بنى قينقاع من المدينة ولحقوا باذرعات الشام . وطرد بنى النضير فنزل بعضهم بخيبر ونزل آخرون بالشام . وفى السنة الخامسة كان الانهاء التام لوجود بنى قريظة بعد قتل مقاتلتهم وغنم أموالهم وذراريهم .

وأخذ التشريع يتكامل تدريجيا ، والتكاليف تزداد شيئا فشيئا ففرض

---

(٢٩) كان المسلمون قد انتصروا انتصارا باهرا فى اول مراحل المعركة التى قاربت ان تنتهى لصالحهم لولا أن خالف « الرماة » عن امر الرسول — صلى الله عليه وسلم — فتركوا موقعهم — وكان ثغرة من الثغرات — انحدر منها خالد بن الوليد بخيل المشركين ، فتغير وجه المعركة وقتل عدد من خيار المسلمين على راسهم حمزة . ولكن المشركين لم يفكروا فى اقتحام المدينة لكثرة قتلاهم وجرحاهم . أما الكسب الأكبر فدرسان خالدان :

الأول : ارتباط النصر بطاعة الله ورسوله فى كل الأحوال .

والثانى : الشورى يجب أن تكون قاعدة اساسية من قواعد الحكم مهما ترتب على الأخذ بها من خسائر فى الظاهر لأنها الأنفع للحكومة والمجتمع على المدى الطويل . وقد كان النبى — عليه السلام — يرى عدم الخروج للكفار وايثار التحصن بالمدينة فاذا جاء قاتلوهم ، ولكنه نزل على راي الأغلبية التى كانت تفضل الخروج . ثم كانت الهزيمة فى المرحلة الأخيرة من المعركة ، ولو أن النبى — عليه السلام — انفرد برايه بعد هذه النتيجة ما لامه أحد . ولكنه وهو منصرف من احد متخنا بالجراح مصابا فى اعز الناس عليه : عمه حمزة ينزل عليه قوله تعالى « ... **فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر** ... » آل عمران ١٥٩ وذلك حتى تكون الشورى قاعدة فى البأساء والضراء ، والمنشط والمكره ، وفى حالى النصر والهزيمة . وكان الأخذ بالشورى هو مسلك النبى — عليه السلام — فى سياسة الأمور والناس فيما لم ينزل فيه وحى .

صيام رمضان وفرضت زكاة الفطر واقام الحـــدود ، وشرع قاعـــدة الولاية العامة للشريعة الاسلامية وذلك برجم يهوديين محصنين زنيا(٣٠) .

والخلاصة انه خلال هـــذه المـــدة ازدادت كسوب المسلمين عسكريا واجتماعيا ، وأصبح للنبى والدولة الاسلامية هيبة فى المنطقة .. بعـــد تصفية الجيوب اليهودية التى كانت مصدر قلق وتهـــديد للدولة . ولم يبق منها الا خيبر التى سيدق النبى — عليه لسلام — حصونها فى صفر فى العام السابع من الهجرة .

ولكن بقى لقريش الشرك كيان فى مكة وخارجها مصدره هيمنتها على الكعبة والبيت الحرام ، وتحريمها الحج وزيارة البيت على المسلمين . فكان فروج النبى اليها استجابة لرؤياه الصادقة وكان ان تم الصـــلح صـــلح الحـــديبية ونصه هـــو :

« باسمك اللهم . هـــذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . واصطلحا على وضـــع الحرب عن النـــاس عشر سنين يامن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض . على انه من اتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه . وان بيننا عيبة مكفوفة(٣١) ، وانه لا اسلال(٣٢) ، ولا اغلال(٣٣) . وانه من احب أن يدخل فى عقـــد محمد وعهده دخل فيه ، ومن احب أن يدخل فى عقـــد قريش وعهدهم دخل فيه(٣٤) . وأن محمدا يرجع عنا عامه هـــذا باصحابه ، ويدخل علينا من قابل فى أصحابه فيقيم بها ثلاثا ، لا يدخل علينا بسلاح الا سلاح المسافر السيوف فى القرب »(٣٥) .

---

(٣٠) ابن تيمية : السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ١٢١ .

(٣١) عيبة الرجل : موضع سره ، والمراد الصـــدور . ومكفوفة اى منطوية على ما فيها ، ويقصـــد بالعيبة المكفوفة ان صـــدورنا معقودة على الوفاء لا يدخلها غل ولا غـــدر .

(٣٢) الاسلال : اخـــذ الشىء خفية دون وجـــه حـــق .

(٣٣) الاغـــلال : الخيـــانة والغـــدر .

(٣٤) سيرة ابن هشام ٣/٢٣٠ . هـــذا وقـــد دخلت خزاعة فى عهد النبى وعقـــده ، ودخلت بكر فى عقـــد قريش وعهدها .

(٣٥) امتاع الأسماع ٢٩٨ .

وكما هـو واضح يكون العهد قـد تضمن الشروط الآتية :

١ ــ هـدنة عشر سنوات .

٢ ــ حق قريش فى أن يرد محمد من جاءه منها مسلما ، وليس لمحمد مثل هـذا الحـق .

٣ ــ حرية الدخول فى حلف مع اى من الطرفين .

٤ ــ رجوع محمد هـذا العام وعودته لزيارة البيت الحرام فى العام التـالى .

٥ ــ الالتزام بحسن النوايا وتجنب الخيانة والغـدر .

وكان وقع الصلح على نفوس عامة المسلمين مؤسفا فقـد استبد بهم شعور هـو مزيج من الحزن والأسى والغضب اذ أنهم كانوا حريصين على مواصلة السير الى مكة بعـد هـذا العناء والحرمان الطويلين .. العناء فى السير من المدينة الى مكة والحرمان من زيارة بيت الله الحرام لمدة سنوات ست .. وهم يعلمون ان رؤيا الأنبياء صادقة وأنها نوع من الوحى ، وقـد راى النبى فى المنام انه يدخل بيت الله الحرام ويؤدى مناسك الحج . فكيف يعـودون دون تحقيق الرؤيا .

ولكن دعك من هـذا لقـد كان اشد الشروط واقساها على نفـوس المسلمين هـو الشرط الثانى الذى بمقتضاه تسترد قريش من ياتى محمدا منها مسلما ولا ترد من ياتيها من المسلمين كافرا . انه شرط لا تكافؤ فيه من وجهة نظرهم ، واعتبره المسلمون وعمر بخاصة « **اعطاء الدنية فى الدين** » اى تفريطا فى الدين بلا مقابل أو بمقابل هزيل . ومما زاد الكرب شدة وهولا ما حـدث قبيل كتابة الصلح(٣٦) من هبوط أبى جندل بن سهيل بن عمرو

(٣٦) نرجع بين يدى هـذه الواقعة ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قـد انتهى مع سهيل بن عمرو من مرحلة « المحادثات التمهيدية » والاتفاق على الخطوط العريضة للصلح . ولم يبق الا كتابة المعاهـدة .

على المسلمين فى الحـديبية(٣٧) نفرح المسلمون به ، فقام اليه ابوه وضرب وجهه بغصن شوك وأخـذ بتلبيبه(٣٨) وصاح ابو جندل بأعلى صـوته : « يا معشر المسلمين !! أؤرد الى المشركين يفتنونى فى دينى » ؟ فزاد المسلمين ذلك شرا الى ما بهم ، وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل . . . وقال سهيل بن عمرو للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ « هــذا أول ما تاضيتك عليه ، رده » فقال النبى « انا لم نقض الكتاب بعـد » فقال لسهيل « والله لا اكاتبك على شىء حتى ترده الى » فرده اليه(٣٩) .

وكان رد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على منطق المعترضين على الصلح وخصوصا عمر « **انى رسول الله ، ولن اعصيه ، ولن يضيعنى** »(٤٠) .

فما فعله النبى ليس اثما ، ولا ينطوى على معصية ، وهــو لا يعصى ربه لأنه رسوله ومختاره ، وهــو يثق فى نصر الله ثقة بلا حـدود . . . وكان النبى فى هــذا الصــلح أبعــد نظرا واثقب فكرا من المسلمين جميعا ومن المشركين جميعا . بل ان هــذا الصلح ــ وخصوصا الشرط الثانى الذى ظنوا أنه فى صالحهم ــ يدل على انهم لا يرون ابعــد من أنوفهم . فقــد اثبت هــذا الشرط خلال أسابيع قليلة انه فى صالح المسلمين لا عليهم ، فالتاريخ يروى أن قريشا حبست من عندها من المسلمين ومنعتهم الخروج من مكة ، ولكن واحــدا منهم هــو « **ابو بصير** » تمكن من الفرار الى المدينة وقصــد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ طالبا موافقة النبى على اقامته فى المدينة ، ولكن النبى ــ عليه السلام ــ قال « **يا ابا بصير انا قــد اعطينا هؤلاء القوم ما قــد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغــدر وان الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا** » ورده النبى مع رسولى قريش

---

(٣٧) وكان قـد اسلم فى مكة فسجنه أبوه وقيده بالحـديد ، ولكنه استطاع أن يفلت من قيوده ويقصـد المسلمين فى الحـديبية .

(٣٨) أى جمع اليه ثوبه الذى هـو لابسه من عند صـدره ونحره ، ثم قبضه وجره اليه .

(٣٩) المقريزى : امتاع الأسماع ٢٩٤ .

(٤٠) الســابق ٢٩٥ .

اللذين جاءا فى طلبه ، ولكنه تمكن من قتل احــدهما ، وخرج حتى اتى « العيص » ونزل منه ناحية على ساحل البحر الأحمر على طريق عير قريش الى الشام وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة خبره فقصــده منهم قرابة سبعين اخــذوا يقطعون على قريش طريقها ويصادرون بضائعها ويقتلون رجالها حتى كتبت قريش الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تسأل بأرحامها الا اواهم فلا حاجة لهم به ، فأواهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقدموا عليه بالمدينة(٤١) .

وزاد عــدد المسلمين المنطلقين من مكة الى المدينة . واكثر من هــذا أثبت النبى ــ عليه السلام ــ لقريش وللعرب انه صادق الوعــد والعهد والنية فى حرصه على السلام ورعاية العهود ، والتنزه عن روح العــدوان وقــد أثبت ذلك ابتداء من خروجه الى مكة فى ذى القعدة سنة ٦ هجرية ودعا الى الحج ، فلم يقصره فى تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته .. بل شمل به كل من اراد الحج من أبناء القبائل العربية التى تشــارك المسلمين فى تعظيم البيت والسعر اليه ، فجعل له وللعرب اجمعين قضــية واحــدة فى وجه قريش ، ومصلحة واحــدة فى وجه مصلحتها . وفضل بذلك بين دعــواها ودعوى القبائل الأخرى ، ثم افسد على قريش ما تعمدوه من اثارة نخــوة العرب وتوجيهها الى مناواة محمد والرسالة الاسلامية . فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخــــوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها ، ولكنهم اذن عرب ينتصر بهم العرب ، ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجــدادهم . فان خالفــوا قريشا فى شىء ، فذلك شأن قريش وحــدهم او شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هــو بشأن القبائل أجمعين ..

ثم أفسد على قريش من جهــة اخرى ما تعمدوه من اغضاب العرب على الاسلام ، بما ادعــوا من قطعه للأرزاق وتهــديده للأســواق التى

(٤١) ابن هشام ٣/٢٣٥ .

يعمرها الحاج ، ويستفيد منها الغادون الى مكة والرائحون منها .. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام . فاذا حال بينهم وبين ما يقصدون انيه . فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه .. ولا وزر فيما أصاب الأسواق على المسلمين »[٤٢] .

ولو نظرنا الى الشرط الثانى فى ذاته — وهو الذى اعتبرته قريش بادىء ذى بدء كسبا كبيرا لها ، واعتبره اغلب المسلمين من قبيل اعطاء الدنية فى الدين — لوجدناه « فارغ المضمون » بالنسبة لقريش ، كما انه لا ينطوى — فى ذاته — على اى اضرار بالمسلمين أو عقيدة الاسلام حتى لو لم تقع واقعة « أبى بصير » واخوانه « فلو أن النبى شرط على قريش أن ترد اليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الاسلامية ، ونقض الوصف الذى يصف به المسلمين ، فان المسلم الذى يترك النبى باختياره ليلحق قريشا ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشا فى دينها ، وهى أولى به من نبى الاسلام .

أما المسلم الذى يرد الى المشركين مكرها فانما الصلة بينه وبين نبى الاسلام ، وهو شىء لا سلطان عليه للمشركين ، ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب . فان كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وان كان وثيق الدين فبقى على دينه فلا خسارة على المسلمين »[٤٣] .

وثمة أدلة أخرى تدل على عبقرية النبى — صلى الله عليه وسلم — فى هذا الصلح ، وتتمثل فيما يأتى :

١ — اعتراف قريش « رسميا » بمحمد قائدا وزعيما ، وبالمسلمين جماعة لها وجود وثقل وكيان ... لم يعد محمد « عمليا » و « رسميا »

(٤٢) العقاد : عبقرية محمد ٥٧ .
(٤٣) العقاد : عبقرية محمد ٦٠ .

ذلك المطارد المطلوب ، ولم يعد المسلمون هم الضعفاء أو المستضعفون ، ولكنهم بقيادة للرسول أصبحوا كيانا سياسيا « معترفا به » .

٢ — الكسب الذى جناه المسلمون بفتح الباب على مصراعية لمن اراد من العرب الدخول فى امر محمد باشتراط ان من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . ومعنى ذلك كف اذى قريش عن الذين يتبعون محمدا . وكان رد الفعل حيال هذه المادة مباشرا فتواثبت خزاعة فقالوا نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، وقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم . وكانت هذه المادة بمثابة حجر الزاوية فى خطة النبى العامة لكسب شبه جزيرة العرب الى جانبه فى السنوات القليلة التى تلت الحديبية(٤٤) .

وهذا النص — حق الدخول فى حلف أحد الطرفين — وان كان نصا متوازيا متكافئا كان كسبا سياسيا اذ أضفى حماية « رسمية » مكتوبة على من يدخل فى حلف محمد ، وهى حماية كانوا فى حاجة اليها لتفادى غدر قريش ، أما من يدخل فى عهد قريش فلم يكونوا فى حاجة الى مثل هذه « الحماية » لأن النبى والمسلمين لا يغدرون ولا يريقون دما الا بالحق ، فلهم من مبادىء الاسلام وسماحته وانسانيته خير حماية دون نص(٤٥) .

٣ — لم تفد قريش من الهدنة شيئا ، بينما أفاد النبى والمسلمون الكثير : اذ عاد النبى والمسلمون الى مكة معتمرين فى العام التالى(٤٦) . وقد

---

(٤٤) د. عون الشريف قاسم : نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ٦٨ .

(٤٥) وكان هذا النص هو مفتاح الخير على المسلمين فقد كان نقضه هو السبب المباشر لفتح مكة ، اذ لم يمض عامان حتى أباتت عن طبيعتها فى الغدر فحرضت بكرا على خزاعة واعانتها بالسلاح والرجال فاعملوا سيوفهم فى الخزاعيين وبعثت خزاعة عمرو بن سالم الخزاعى يستصرخ النبى والمسلمين فاستجاب النبى — عليه السلام — وكان ما كان من فتح مكة .

(٤٦) ابن هشام ٢٧٣/٣ .

دامت الهدنة عامين فحسب ، ولكنهما كانا كافيين لمحمد — صلى الله عليه وسلم — لتثبيت مركزه ، ولد نفسه بالقوة اللازمة لكسر شوكة قريش ، وتقويض سلطانها . وفى هـذه الأثناء دك معاقل اليهود فى خيبر وفـدك فى العام السابع للهجرة ، وبعث بحملة الى مؤته فى العام الثامن من الهجرة . وفى هـذا العام الثامن كان المسلمون موقنين من النصر ، فقـد تضخمت أعـدادهم وتكاثرت ، وانضم الى صفوفهم جماعة من كبار المكيين كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وكان جيشهم الذى قـدر عدده بعشرة آلاف(٤٧) دليلا واضحا على تفوقهم الحربى والسياسى فى شبه جزيرة العرب »(٤٨) .

هـذا هو صلح الحـديبية ، كان دليلا على عبقرية النبى السياسية وبعـد نظره كما بينا فلا عجب ان يسميه القرآن « فتحا » فينزل الله على نبيه — عليه السلام — بعـد عقـد الصـلح وانصرافه من الحـديبية « **انا فتحنا لك فتحا مبينا** »(٤٩) .

* * *

وكان كتاب الموادعة الذى بين الرسول والمسلمين واليهود فى السنة الأولى للهجرة ومعاهـدة الصلح .. صلح الحـديبية فى السنة السادسة أهم الكتب السياسية فى تاريخ الدولة الناشئة ، لأن الأول يمثل « **القانون الدستورى** » الذى ينظم العلاقات بين السلطة الحاكمة ، وفئـات الشعب المختلفة ، وبين هـذه الفئات نفسها بعضها بعضا وينظم الحقوق والواجبات فى شتى المجالات .

أما الثانى فكان فتحا حقيقيا كما ذكر القرآن الكريم ، وكان دليلا عمليا رائعا على عبقرية النبى السياسية وبعـد نظره .وجاءت الوقائع والأحداث القريب منها والبعيد تثبت هـذه الحقيقة .

---

(٤٧) قدره بعض المؤرخين باضعاف هـذا العدد .
(٤٨) عون الشريف : السابق ٧٠ .
(٤٩) سورة الفتح الآية ١ . وانظر السيوطى : اسباب النزول ١٥٤ .

ويلحق بهـــذا اللون من الكتب « كتب الصلح والمعاهـــدات » ما يسمى « كتب الأمان » وهى الكتب التى يمنحها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لفرد أو جماعة أو قبيلة أوبلد ــ وفيها ينص على « امانهم » بمعنى أنه لا يحق لأحـــد أن يتعرض لهم أو لأموالهم بعـــدوان . فهو نوع من النص على حماية السلطة لصاحب العهد . وكتب الأمان هـــذه نوعان هما :

١ ــ **كتب الأمان الشامل أو العام** : مثل كتابه لأهل اذرح وجرباء الذى اكتفى فيه بالنص على انهم « آمنون بأمان الله وأمان محمد »(٥٠) .

٢ ــ **كتب الأمان المفصلة** : وفيها ينص على ما يشمله الأمان ، كعهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأهل أيلة(٥١) فقـــد أمنهم على سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر . . ولا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر او بحر »(٥٢) .

ولمثل هـــذه الكتب فى انغالب داعية وسبب كطلب اهلها الأمان ، أو دفعهم الجزية ، أو اعلانهم السلم ، أو ما يدور فى هـــذا الفـــلك ، وقـــد نذكر فيها مقـــدار ما يلتزمون به ، أو ما يجب عليهم من عمل وخلافه .

---

(٥٠) امتاع الأسماع ٤٦٨ .

(٥١) مدينة على خليج العقبة شمالا .

(٥٢) امتاع الأسماع ٤٦٨ .

(٢) كتب الدعــوة الى الاســلام

ومن اهم الكتب فى حياة النبى — صلى الله عليه وسلم — الكتب التى بعث بها الى شخصيات ذكرت فى التاريخ على سبيل الحصر ، وفيها يدعوهم الى الاسلام . ويلفت نظرنا الى هــذه الكتب امران :

الأول : ان اغلبها بعث به الى ملوك وأمراء وحكام وذوى مناصــب عليا فى بلادهم .

والثانى : أن اغلب هــذه الكتب كان فى العام السادس للهجرة او ما بعــدها .

وتبرير الأمر الأول لا يحتاج الى عناء ، فالناس على دين ملوكهم كما يقول المثل . وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — يطمع فى اسلام الرعايا باسلام حكامهم ، وفى ذلك توفير كبير للجهود ، وكسب كبير للاسلام .

أما اختيار العام السادس لارسال هــذه الكتب فلأنه كان البــداية الحقيقة للانفتاح الاسلامى فى السياسة الخارجية — أن صح هــذا التعبير — ابتداء بقريش فى الحــديبية ، لذا ارجح أن تكون هــذه الكتب قــد بدىء فى ارسالها بعيد الحــديبية وذلك بعــد أن أمن النبى — صلى الله عليــه وسلم — قريشا بالاتفاق على هــدنة طويلة ، أو ما يمكن أن نسميه بتأمين الجبهة الداخلية ، حتى اذا ما غضب واحــد من هؤلاء الملوك وأرسل بجيش لمحاربة الرسول لم تكن قريش يدا معه على محمد — عليه السلام — .

* * *

الرسـل المبعـوثون :

وكان رسل النبى الذين يحملون كتبه هم :

١ — حاطب بن ابى بلتعة اللخمى : الى المقوقس بمصر .

٢ — شجاع بن وهب الأسدى : الى الحارث بن ابى شمر الغسانى ملك تخـوم الشام .

٣ — دحية بن خليفة الكلبى : الى قيصر ملك الروم .

٤ — سليط بن عمرو العامرى : الى هـوذة بن على الحنفى والى ثمامة بن اثال : رئيسى اليمامة .

٥ — عبد الله بن حـذافة السهمى الى كسرى ملك فارس .

٦ — عمرو بن امية الضمرى : الى النجاشى ملك الحبشة .

٧ — العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى ملك البحرين[٥٣] .

مضامين الكتب :

وتشترك كل هـذه الكتب — كما ذكرت — فى مضمون محورى وهـو الدعوة الى الاسلام التى جاءت فى أساليب متعـددة[٥٤] ، ولم تأخـذ صورة واحـدة ، ولكن بجانب هـذه الفكرة المحورية كان هناك مضامين اخرى فرعية مشتركة بين هـذه الكتب جميعا أو اغلبها وان ارتبطت ارتبـاطا وثيقا بالمضمون الرئيسى . ومن هـذه المضامين المشتركة :

١ — فى الاسلام السلامة ، ومن امتنع عن الاسلام أثم .

(٥٣) انظر امتاع الأسماع ٣٠٧ .

(٥٤) لم يستخدم الرسول — صلى الله عليه وسلم — اسلوبا واحدا فى هـذه الكتب ، وكان من الممكن ان يجعله كتابا واحـدا يرسل منه نسخة لكل واحـد من هؤلاء ولكن النبى — عليه السلام — لم يفعل ذلك لفيض اسـلوبه وفصاحته ، ومراعاة مقتضى الحال والظروف والطبائع والمشارب المختلفة بين هؤلاء جميعا .

٢ ــ محمد هــو رسول الله المبعوث للناس كافة .

٣ ــ الممتنع عن الاسلام لا يحمل اثم بقائه عى الكفر فحسب ولكن اثم رعاياه ، لأنهم يتبعونه ضلالة أو هــداية والنــاس على دين ملوكهم .

٤ ــ الاستشهاد بآية او آيات من القرآن مناسبة للمقام ومتعلقة بطبيعة المرسل اليه(٥٥) .

فكل هــذه الكتب كانت الفكرة الأساسية التى تحملها هى الدعــوة الى الاسلام ، ثم هى تمزج فى تضاعيفها بين الترغيب فى الدعوة الجــديدة والترهيب المجمل من نتيجة المخالفة برفض اعتناق الاسلام وهــو الدين الخاتم الذى جاء به رسول بعث به الله للناس كافة وهــو محمد بن عبد الله عليه السلام .

* * *

ولكن على الرغم من هــذه المشابه فان هناك ملامح فارقة لا يخطئها النظر بين هــذه الكتب .

١ ــ فبعضها ياتى موجزا فى سطرين ، ويدعو الى الاسلام مباشرة دون تفصيل . ككتابه ــ عليه السلام ــ الى الحارث بن ابى شمر الغسانى . ونصـــه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى الحارث بن أبى شمر . سلام على من اتبع الهــدى ، وآمن بالله وصــدق وانى ادعــوك الى ان تؤمن بالله وحــده لا شريك له . يبقى لك ملكك »(٥٦) .

---

(٥٥) وهــذا أمر طبيعى فالقرآن هــو المصدر الاول للتشريع ، وهــو السجل الخالد للقيم الاسلامية ، وقــد تكون الآيات المستخدمة عرضا لموقف القرآن من الرسل كعيسى وموسى .

(٥٦) جمهرة رسائل العرب ٤٤ . ويقال انه لما قرا الكتاب رماه وارغى وازبد ، وهم بالسير فى جيش الى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن قيصر ثناه عن عزمه .

وبعضها يأتى أكثر تفصيلا كأغلب هـذه الكتب ولكنها جميعا تلتقى فى صفة الايجاز . وفى كتاب واحـد فقط هـو كتابه للمنذر بن ساوى يذكر بعض ملامح المسلم ، فالمسلم — على حـد قـوله عليـه السلام — هـو **من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، واكل ذبيحتنا** »(٥٧) .

٢ — وانفرد كتابه الى النجاشى عن الكتب جميعا بامرين هما : ذكر بعض أسماء الله الحسنى « **.... الملك القـدوس السلام المؤمن المهيمن** » ، وشرح طبيعـة سيدنا المسيح عيسى بن مريم — عليـه السلام — فهـو « **روح الله ، وكلمته القـاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ....** »(٥٨) .

والعجيب أن يذكر النبى — عليه السلام — ذلك فى كتابه الى النجاشى ؛ وربما كان أولى به رجل كالمقـوقس « عظيم انقبط » حتى يبعث فيه حسه الدينى ... فهو زعيم دينى قبل كل شيء ، ولكن معرفة الواقع التاريخى آنذاك تجعلنا نؤمن بأن النبى — صلى الله عليه وسلم — فى اختصاصه كتابه للنجاشى بذكر المسيح وكيفية ولادته ، فقبل هـذا بعام هاجر جعفر بن ابى طالب وعشرات من المسلمين الى الحبشة ، وأرسلت قريش فى اثرهم وفـدا منهم عمرو بن العاص لاستعادة هؤلاء « الفارين » الخارجين وارجاعهم الى مكة ، أو على الأقل محاولة تأليب النجاشى عليهم فلم يجـدوا سـبيلا يتسللون منه الى قلب النجاشى الا طبيعة المسيح ، ورأى المسلمين « السيء » فيـه . وشرح المسلمون وجهـة نظر الاسلام فى خلق المسيح ومكانته عند المسلمين فخابت مؤامرة الكفار ، وعامل النجاشى المسلمين معاملة طيبة .

وقـد اراد النبى — عليه السلام — باعادة ذكر هـذه المسألة فى كتابه تأييدا لمـا ذكره المسلمون ، وتأكيدا له وكسبا لمشاعر هـذا الملك العظيم ، وقـد تحقق ما أراد فأرسل اليه النجاشى كتابا يعلن فيه انه أسلم

---

(٥٧) البلاذرى : فتوح البلدان ٩١ .

(٥٨) أنظر أسد الغابة ١١٩/١ وجمهرة رسائل العرب ٤٠ . وسنرى انه فى احد كتبه لخيبر يتحدث بشىء من التفصيل عن موسى عليه السلام .

على يد جعفر بن ابى طالب ، ويعبر عن ايمانه بما ذكره الرسول فى طبيعة المسيح عليه السلام .

٣ ــ كما انفرد كتاب النبى الى النجاشى بذكر « مطلب خاص » هــو أن يحسن النجاشى الى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين الى الحبشـــة .

ويراعى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يكون المثل التاريخى الدينى مناسبا عقــديا ودينيا لمن يرسل اليه كتاب الدعوة ، ففى كتابه الى خيبر ما يظهر لنا صــحة هــذه المقولة ، يقول عليه السلام فى كتابه « **بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى واخيه المصــدق بما جاء به موسى ، الا ان الله قــد قال لكم : يا معشر اهــل التوارة ــ وانكم تجدون ذلك فى كتابكم : (محمد رسول الله والذين معه اشــداء على الكفار رحماء بينهم ....) ، وانى انشدكم بالله ، وأنشدكم بما انزل عليكم ، وانشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من اسباطكم المن والسلوى ، وانشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى انجاهم من فرعون وعمله الا اخبرتمونا هل تجدون فيما أنزل عليكم ان تؤمنوا بمحمد ؟ فان كنتم لا تجــدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم ، (قــد تبين الرشد من الغى) فادعوكم الى الله والى نبيه** »[٥٩] .

٤ ــ وأكد النبى ــ عليه السلام ــ فى بعض هــذه الكتب مسئولية الحكام عن ضــلال الرعية ، وكان هــذا التاكيد صريحا قارعا شــديد اللهجة فى كتب ثلاثة وهى كتبه الى كسرى الفرس وقيصر الروم والمقوقس ... فالأولان هم أوســع حكام الأرض نفــوذا . والثالث هــو صاحب الهيمنة الدينية على اقباط مصر .... ففى كتابه ــ عليه السلام ــ الى قيصر الروم « **فان توليت فانما عليك اثم الأريسيين ....** »[٦٠] .

---

(٥٩) النويرى : نهاية الأرب ١٦/٣٧٢ .

(٦٠) جاء فى لسان العرب : الأريس (كامير وسكيت) هــو الأكار : اى الفلاح . وكتب معاوية الى صاحب الروم حين علم انه يريد ان يتصــد الشام ايام صفين مستغلا ما بينه وبين على من خــلاف « .... ولأردنك اريسا من الأرارســة ترعى الدوابل » .. والاريس (كسكيت) هــو الأمير والرئيس . فعلى الأول يكون المعنى فان عليك اثمك واثم رعاياك الذين يتبعــونك وينقادون لأمرك . وعلى الثانى فان اثم الأكابر عليك لأنك ان توليت عن اجابة الدعوة لم يجب اليها كبراء دولتك تبعا لك ، ولــو أنهم اسلموا لهــدوا قــومهم الى الاسلام لــا فيهم من الأمر المطاع والكلمة النافــدة وقــوة التاثير . [أنظر جمهرة رسائل العرب هامش ٣٨] .

وفى كتــابه الى كسرى الفرس « ٠٠٠٠ **فــان ابيت فعليــك اثم المجــوس** »[٦١] .

وفى كتابه الى المقوقس : « **فان توليت فانما عليك اثم القبط** »[٦٢] .

ولكنها فروق لا تبتعــد ، بل هى ترتبط بالفكرة الأساسية الرئيسية وهى الدعــوة الى الاســلام .

وقــد كان تأثير هــذه الكتب مختلفا كما أشرنا من قبــل : فاما المقوقس ، فانه قبل كتاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واهـدى اليه اربع جــوار ، منهن مارية . واما قيصر (واسمه هرقل) ، فانه قبل ايضا الكتاب واعترف بالنبوة ، ثم خاف من قــومه فامسك . وأما الحارث ابن أبى شمو الغسانى ، فانه لمــا اتاه الكتاب قال : أنا سائر اليه « يعنى محاربا » . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وقد بلغه ذلك عنه : باد ملكه .

وأما النجاشى ، فانه آمن برسول الله واتبعه ، واسلم على يد جعفر ابن ابى طالب رضى الله عنه ؛ وارسل ابنه فى ستين من الحبشة فغرقــوا فى البحر . وبعث اليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يزوجه بأم حبيبة بنت ابى سفيان بن حرب ــ وكانت مهاجرة بالحبشة مــع زوجها عبد الله بن جحش فتنصر هناك ــ فزوجه اياها ، وقام بصداقها : اربعمائة دينار من عنده .

واما كسرى أبرويز بن هرمز ، فانه مزق الكتاب ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : مزق الله ملكه . فسلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

---

(٦١) المجوس هم عبدة النار . والمفرد مجوسى .

(٦٢) القبط هم سكان مصر . ولكنها تطلق الآن على النصارى فقط . والمفرد قبطى .

وأما هـــوذة بن على ، فبعث وفـــدا بأن يجعل له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الأمر بعـــده حتى يسلم ، والا قصده وحاربه . فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : اللهم اكفنيه ! فمات بعـــد قليـــل . وأما المنذر ابن ساوى ، فانه أسلم واسلم أهل البحرين »(٦٣) .

ولكننا نستطيع ان نقول أن التاثير كان ايجابيا الى حـــد بعيد والذين لم يسلموا فى حياة النبى ــ افرادا كانوا أو قبائل ــ اسلموا فى حياة خلفائه .

---

(٦٣) انظر امتاع الاسماع ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣) الرســـائل والكتب التشريعية

وهى تلك التى توجه الى الأفراد او القبائل وفيها عرض لأحكام الدين المختلفة ، وما يتطلبه الشرع فى مجال العبادات والمعاملات وغيرها . وكانت هـــذه الكتب تفصل كثيرا من قواعـــد الدين ، ولكنها خصـــت انزكاة بالنصيب الأوفى وذلك لأنها الركن الاسلامى الوحيد ذى التشاعيب التى تحتاج الى تفصيل وحساب . مثل كتابه الى معاذ بن جبل عامله على اليمن . وهـــو من أواخر كتبه — عليه السلام — وفيه يتحـــدث عن خراج الأرض والجزية واليهود . وهـــو من اوجز الكتب التشريعية ، وفيه يبين أن زكاة الأرض عشر ما تخرج ان سقيت بالمطر ، ونصف العشر اذا سقيت بمجهود وعمـــل : « **وأن على كل حالم دينارا أو عـــدل ذلك من المعافر ، وأن لا يفتن يهـــودى عن يهـــوديته** »(٦٤) .

ومن اوفى هـــذه الكتب التشريعية ما كتبه لعمرو بن حزم الأنصارى ، وقـــد بعثه الى بنى الحارث بن كعب يعلمهم السنة ، ومعالم الاســـلام ويأخـــذ منهم صـــدقاتهم وقـــد حـــدد فيه واجبات الوالى وكنها واجبات تنبع من شخصيته معلما وهاديا نقيا نقيا قبل أن يكون حاكما وجابيا . فمن اهم واجباته : أن يعلم الناس قواعـــد الدين من وضوء وصلاة وحج لا فى الأصول ولكن فى الهيئة وطريقـــة الأداء بالتفصيل وكذلك الزكاة ومقـــدارها فيما اخرجت الأرض وفى الابل والبقر . والجزية .

بل جعـــل من واجبـــات الحاكم ان يعلم الناس الواجبـــات الاجتماعية حتى فى المظهر والهيئة فمن هـــذه الواجبـــات ان : « **ينهى الناس ان يصلى**

(٦٤) البلاذرى : فتوح البلدان ٨١ . والعـدل : المثيل والمعافر : الأثواب .

أحــد فى ثوب واحــد صغير ، الا ان يكون ثوبا واحــدا يثنى طرفيه على عاتقيه . وينهى الناس ان يحتبى أحــد فى ثوب واحــد يفضى بفرجــه الى السماء ، وينهى أن لا يعقص أحــد شعر رأسه اذا عفــا فى قفاه . وينهى — اذا كان بين الناس هيج — عن الدعاء الى القبائل والعشائر ، وليــكن دعاؤهم الى الله وحــده لا شريك له ٠٠٠٠ » .

وختم العهد بما يجب عليه نحــو أهل الذمة :

« ٠٠٠٠ وانه من أسلم من يهودى أو نصرانى اسلاما خالصا من نفسه ، ودان بدين الاسلام فانه من المؤمنين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فانه لا يفتن عنها . وعلى كل حالم ذكر أو انثى ، حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثيابا ، فمن أدى ذلك فان له ذمة الله وذمة رسوله وللمؤمنين جميعا »(٦٥) .

* * *

والكتاب السابق كما ذكرت كتاب تشريعى شامل ، ولكن هناك ما يمــكن أن نسميه « **الكتب التشريعية المتخصصة** » وهى تلك الكتب التى تغطى جانبا تشريعيا معينا يعالجه الكتاب معالجة تفصيلية دون ادخال مسائل أخرى معه . وأوفى هــذه الكتب هــو كتابه — صلى الله عليــه وسلم — فى الصــدقات(٦٦) الذى كان عند أبى بكر الصــديق — رضى الله عنه — وقــد كتبه ابو بكر لانس بن مالك حينما استعمله على البحرين . ولم يترك الكتاب صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، وذلك فيما يتعلق بزكاة الحيوان ، من ابل وبقر وغنم .

ونجتزىء بهــذين المثلين للكتب التشريعية . وهناك كتب اقــل شمولا وأكثر ايجازا من الكتب السابقة تدور حول امور اغلبها يتعلق بالعقيدة والفروض الاسلامية . والهــدف منها تعليم المسلمين أمور دينهم ، والزام الحكام والعمال والقواد بشريعة الله .

(٦٥) انظر جمهرة رسائل العرب ٦٤ — ٦٦ .
(٦٦) صحيح البخارى باب زكاة الغنم ١٤٦/٢ .

(٤) كتب الاقطاع والغنائم

يقصد بكتب الاقطاع تلك الكتب التى يمنح بمقتضاها فرد من الافراد او جماعة من الجماعات الحق فى امتلاك الأرض أو ماء أو شجر أو ما شابه ذلك ، او احتكار الانتفاع بذلك بصفة دائمة أو فى وقت محدود . والخلاصة ان الاقطاع يفيد المنح والاعطاء[٦٧] ، وان انصرف غالبا الى الأرض .

وقد « اقطع » النبى — صلى الله عليه وسلم — افرادا وقبائل ، ويرجع ذلك الى أسباب تختلف باختلاف الحالات ووراء هذه الأسباب كلها باعث نفسى ، وان شئت فقل : خليقة مركوزة ، وشيمة ثابتة فى نفسه وهى الكرم ، فلم يكن هناك من يباريه فى هذه الصفة : قال ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان فى شهر رمضان . . . وعن أنس أن رجلا سأله فاعطاه غنما بين جبلين ، فرجع الى بلده وقال : « اسلموا ، فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة . واعطى غير واحد مائة من الابل ، واعطى صفوان مائة ثم مائة . . . وقد قال له ورقة بن نوفل : انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، ورد على هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف »[٦٨] .

وهناك سبب من اسباب الاقطاع — وان كان خاصا بالمهاجرين — وهو **الحاجة الى العيش والاستقرار** ، فقد واجهت محمدا — صلى الله عليه

---

(٦٧) جاء فى لسان العرب : ... القطعة من الشىء : الطائفة منه .. والقطيعة ما اقتطعته منه . واقطعنى اياها : اذن لى فى اقتطاعها ، واستقطعه اياها : سأله ان يقطعه اياها . واقطعته قطيعة : اى طائفة من ارض الخراج ، واقطعه نهرا : اباحه له . وفى حديث ابيض بن جمال : انه استقطعه الملح الذى بمارب فاقطعه اياه .

(٦٨) القاضى عياض : الشفا ١/٨٦ .

وسلم — حين تولى زمام الأمور فى المدينة المنورة مشكلة حادة تحتاج الى حل فورى ، وهى « توفير السكن للمهاجرين » ومعظم هؤلاء كانوا فقراء لا مساكن لهم بالمدينة.وكاجراء سريع لايوائهم آخى بين الأنصار والمهاجرين ، والذى قد يعنى فى صميمه اقتسام الثروات الموجودة بين الجانبين ، ولكن هذا انحل كان حلا مؤقتا وجزئيا فى نفس الوقت ، لجأ النبى — عليه السلام — بعده الى منح المهاجرين اراضى سكنية داخل المدينة برضى من الأنصار ، وقد بنى المهاجرون فيها دورا لهم .

ثم كان هناك دافع التعمير ، فاقطع النبى عليه السلام عددا من المهاجرين أراضى فى أودية المدينة الشهيرة مثل العقيق وينبع والفرع والبقيع وكلها أراضى غير مستصلحة . ويتراوح موضوع الاقطاع فيها ما بين النخيل والآبار والمعادن والأرض . ويروى التاريخ ان النبى عليه السلام قد اقطع من ارض المدينة ما كان عفاء ، اى ما ليس لأحد فيه اثر ، أو ما ليس فيه ملك .

ثم كانت حملات الرسول — صلى الله عليه وسلم — ضد يهود ، المدينة التى انتهت بطردهم جماعة اثر جماعة ، وبنفيهم التدريجى عن مواطنهم حول المدينة ، فقد اتاحت الأرض الغنية التى خلفوها فرصا كبيرة أمام السكان الجدد ، والروايات مليئة بالتفاصيل عن القطائع التى منحت للصحابة الذين كانوا يسكنون المدينة ولغيرهم من كبار الشخصيات(٦٩) .

وزيادة على البواعث السابقة هناك سبب يتعلق بمصلحة الدين والدولة وهو تأليف قلب الشخص وجذبه للاسلام للانتفاع بقدراته

---

(٦٩) أنظر : عون : نشأة الدولة الاسلامية ٢٧١ — ٢٧٥ .

ومكناته ونفــوذه لصالح الاسلام والمسلمين مثل « مجاعة بن مرارة[٧٠] فقد قــدم على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى وفــد بنى حنيفة وكان فيهم مسليمة الكذاب . فسال مجاعة رسول الله أن يقطعه أرضا فاقطعه اياها ، وكتب له بذلك كتابا نصه :

« **بسم الله الرحمن الرحيم : هــذا كتاب كتبه محمد رسول الله لمجاعة بن مرارة بن سلمى ، انى أقطعتك الغورة وغرابة والحبل »**[٧١] .

أما نموذج الاقطاع الجماعى فاقطاعه للداريين[٧٢] ، فقــد روى أنه قــدم من الشام نفر منهم على النبى وهــو فى مكة قبل الهجرة ، فاسلموا ، وسالوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يقطعهم ارضــا من ارض الشام ، فــدعا بقطعة من ادم ، وكتب لهم فيها كتابا نصه :

« **بسم الله الرحمن الرحيم . هــذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمــد رسول الله للداريين اذا أعطاه الله الأرض . وهب لهم بيت عينون وحبرون والمرطوم ، وبيت ابراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ بمن فيهن لهم الى الأبــد** » .

شهد بذلك عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة ، وكتب واعطاهم الكتاب ، وقال **انصرفوا حتى تسمعوا انى قــد هاجرت فانصرفوا**[٧٣] .

---

(٧٠) وكان من رؤساء بنى حنيفة وعظمائهم واصحاب الراى فيهم ، وهــو فى السيطرة على قــومه ومكانته بينهم ياتى بعــد مسيلمة ، وان كان ارشد منه وابعــد نظرا [انظر اســد الغــابة ٦١/٥] . وانظر فى ذكائه وحسن تدبيره وبراعــة تصرفه ايام اليمامة وهــو مرتــد : فتــوح البلــدان ١٠٠ .

(٧١) فتوح البلدان ١٠٣ ــ الغــورة وغرابة والحبل : مواضع باليمامة .

(٧٢) هم بنو عبد الدار بن هانىء بنى حبيب .

(٧٣) جمهرة رسائل العرب ٧١ .

وقـد يأخـذ الشك بعض الباحثين فى هـذا الكتاب مثل الدكتور حميد الله الذى اعتمد فى شكه فى مثل هـذا اللون الكتب على ركيزتين :

الأولى : معيار « الوضع والصحة » الذى أخـذ به نفسه فى التحقيق وهـو أن الوثائق التى لا تشتمل الا على الحقوق دون الواجبات .... تعتبر موضوعة[٧٤] .

والثانية : التكييف القانونى للجماعة الاسلامية فقـد كان عصر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل الهجرة عهد تمهيد وتجربة ؛ ولا يصـح أن يقال ان الجماعة الاسلامية بمكة كانت حينئذ دولة من الدول ، فانه لم يكن لهـا كيان سياسى ، ولا نظام ادارى . ولا تصادف فى هـذا العصر ما يطلق عليه اسم السياسة الخارجية سوى بيعتى العقبة .... الا انهما لم تكتبا فى قرطاس ، ولم تؤخـذا الا سرا[٧٥] .

ولكن ما ذهب اليه الدكتور حميد الله فى كتابه القيم ــ أو بعض ما ذهب اليه ــ **فى حاجـة الى نظر :**

١ ــ فليس هناك ما يمنع عقلا وعادة ان يكون هناك من الوثائق ما يشتمل على حقوق فقط . بل أن « وثيقتى » العقبة ــ وان كانتا شفويتين ــ لم تشتملا الا على « حقوق » فقط فى أعناق الأنصـار نحـو النبى ــ عليـه السلام ــ وجماعة المسلمين . واعتقد أن تعميم الحكم بهـذه الصورة على كل « وثائق الحقوق » غير سليم ، والأصح من ذلك ــ فى رايى ــ هـو النظر الى هـذا اللون من الوثائق .. كل وثيقة على حـدة ، أو بتعبير ادق : ينظر الى « الحقوق » التى تضمها الوثيقـة ويتم تقييمها تقييما موضوعيـا وتاريخيا ، والبحث فى امكان منحها أو عـدمه ، وكذلك تقييم الوضع الاجتماعى

---

(٧٤) مجموعة الوثائق السياسية ١٨ .
(٧٥) السـابق ١٣ .

والدينى والسياسى لكل من « المانح » و « الممنوح » وطبيعة العلاقات التى تربط بينهما ، على ما هو معروف فى مناهج البحث والتحقيق .

٢ ــ ونحن مع الدكتور حميد الله فى مقولته الثانية فى شكلها العام ، فصحيح ما ذهب اليه من أن الدولة الاسلامية لم يكن لهـــا « وجود فعلى » الا فى المدينة بعـــد هجرة النبى ــ عليه السلام ــ اليها . وان كتابة الوثائق ارتبطت بنشأة الدولة . نعم هـــذا صحيح ، ولكن اســـتخدام النبى والمسلمين الكتـــابة بدأ فى مكة ، فكتبـــوا آيات القرآن التى نزلت بمكة أو بعضها ، فليس هناك أيضا ما ينقض هـــذه الوثيقة اعتمادا على الحكم العام بارتباط كتابة الوثائق بوجـــود الدولة ، وخصوصا أنهـــا تكاد تكون الوثيقة الوحيدة التى كتبها النبى قبل الهجرة .

٣ ــ ولكن قـــد يأتى الشك فى هـــذه الوثيقة من ناحية النظر الى « طبيعة الحقوق المقطعة » وتوقيت المنح . فهى تمثل اقطاعات ضخمة . ثم كيف يقطع النبى ــ عليه السلام ــ ما لا يملك ، وما لا يملك المسلمون آنذاك ؟ أو بتعبير آخر : كيف يمنح قـــوما أشياء لا يعلم الا الله ان كانت ستئول لجماعة المسلمين ام لا ؟

ولكننا لا نستبعد صحة الوثيقة : فمنح الكثير والغزير ليس غريبـــا وليس كثيرا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقـــد رأينا صورا من كرمه التى عرضها القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » .

وفى سيرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ واقعة منح أشـــياء منحا مضافا الى المستقبل ، فقـــد كتب كتابا لسراقة بن ملك او على الأقل وعـــده وعـــدا شفويا مؤكدا بحقه فى سوارى كسرى وكان ذلك والنبى فى طريقه من مكة الى المدينة مهاجرا مع صاحبه ابى بكر .

ولماذا لا يكون ذلك من « اشراقات النبوة » وهى نعمة يمنحها الله انبياءه يعبر عنها النبى — عليه السلام — حتى فى حالات الضيق والكرب تقوية لعزم المسلمين ، وزرعا للأمل والثقة بالله فى نفوسهم ، وقد جاء فى الأثر ما خلاصته أن المسلمين أثناء حفر الخندق وهم مهددون بانقضاض قريش والأحزاب عليهم فى اية لحظة اعترضتهم صخرة فلما ضربوها بالمعاول برقت ثلاث مرات فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — « **انى رايت فى الأولى قصور اليمن ، ثم رايت فى الثانية قصور الشام ، ورايت فى الثالثة قصر كسرى الأبيض بالدائن ... هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدى ، يا سلمان لتفتحن الشام ، ويهرب هرقل الى اقصى مملكته ، وتظهرون على الشام ، ولا ينازعكم احد ، ولتفتحن اليمن ، ولتفتحن هذا المشرق ، ويقتل كسرى فلا يكون كسرى بعده** »(٧٦) .

واحتمال تزوير هذا الكتاب بعيد بل مستحيل لأن النبى — عليه السلام — قيد ذلك الاقتطاع بعبارة « **... اذا اعطاه الله الأرض** » ثم قال لهم « **انصرفوا حتى تسمعوا انى قد هاجرت** » وهو ايحاء لهم بأن الكتاب يحتاج الى ما يؤكده ويوثقه فى المدينة بكتاب آخر .

فليس ثمة داعية للتزوير لأنهم يعلمون ان الكتاب لابد من توثيقه فى المدينة ، وهذا ما فعله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اذ قدموا عليه فى المدينة فسألوه أن يجدد هذا العهد ، فكتب لهم كتابا جديدا بنفس المضمون ، وقريبا جدا من صيغة الكتاب السابق(٧٧) . كما أن أبا

---

(٧٦) انظر امتاع الأسماع ٢٢٣ . وقد روى ان الزبير بن العوام هم بالانصراف عن قتال على فى « الجمل » لما علم ان « عمار بن ياسر » يقاتل فى جيش على ، فخاف ان يقتل عمارا وقد قال النبى — صلى الله عليه وسلم — « تقتلك الفئة الباغية » .
[انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٤٨/٣ . وتاريخ الطبرى ٣٨/٥] .

(٧٧) مجموعة الوثائق السياسية ١٠١ . وجمهرة رسائل العرب ٧٢ .

بكر جـــدد لهم الكتاب فى عهده ، وكتب الى قائد عسكره فى الشام ابى عبيدة ابن الجراح يطلب منه حمايتهم وتمكينهم من تنفيذ مضمون الكتاب(٧٨) .

* * *

حالات اخرى من اقطاع النبى عليه السلام :

ومن حالات الاقطاع وصورها ما اقطعه النبى ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ : **بلال بن الحارث** ، وهـــو كثير منه « معادن القبلية » ، وهى ارض كبيرة ٪ زرع فيها تمتد من المدينة الى جهة مكة ، وتلامس **أطرافهـــا** ســـاحل البحر ،

ومنها اقطاع **الزبير بن العوام** « حصن البويلة » . وهى أرض ذات نخل من اراضى مبنى النضير . ومنها اقطاع **عـــوسجة بن حرملة الجهنى** ارضا تسمى « بلكثة » أو « بلاكث » ، وهى فى نفس المنطقة التى يقطنهـــا « **عـــوسجة** » ، وكان من المسلمين المخلصين الأنقياء .

ومنها كذلك اقطاع « **يزيد الحارثى** » وقـــومه **الذين دخلوا فى الاسلام** فى آخر العام العاشر الهجرى ، وهاجروا من **موطنهم فى نجران** ــ **مقر بنى** الحارث ــ الى المدينة . وقـــد أقطعهم النبى ــ عليه السلام ــ أرضا تسمى « نمرة » وأرضا تتبعها تسمى « وادى الرحمن » .

وهـــذه الاقطاعات كلها مثبتة فى كتب **كتبها النبى** ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأصحابها اثباتا لحقوقهم فيها ، **واغلبها كما هـــو ظاهر** موضوعه « الأرض » ، ســـواء أكانت ارضا زراعيـــة ، **أو ارضا تتخـــذ مكانا للبنـــاء**

---

(٧٨) مجموعة الوثائق ١٠٣ ، والجمهرة : السابق ٧٤ .

والسكنى . ولا يتسع المقام للوقوف طويلا امام هـذه الوثائق ، فيكفينا الاشارات السابقة اليها[٧٩] .

* * *

كتب الغنائم

وهى الكتب التى ينص فيها على انصبة معينة لبعض الشخصيات من الغنائم أو الفىء ، وهى غالبا ما تزيد على الحق المتعارف عليه لهم وللآخرين والا ما نص عليه ، وما كان هناك قيمة للكتاب ما دام الحق مضمونا معروفا شأنه شأن الآخرين . ومن هـذه الكتب كتاب قسمة قمح خيبر ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : ذكر ما أعطى محمد رسول الله – صلى الله وسلم – نساءه من قمح خيبر : قسم لهن مائة وسق وثمانين وسقا ، ولاسامة بن زيد اربعين وسقا ، وللمقداد بن الأسود خمسة عشر وسقا ، ولأم رميثة خمسة أوسق . شهد عثمان بن عفان ، وعباس ، وكتب »[٨٠] .

ومثله كتاب « مقاسم أموال خيبر » ، وهو كتاب ينص بصورة مباشرة على أنصبة خاصة من طعمة خيبر : فلأبى بكر مائة وسق ، ولعقيل بن ابى طالب مائة وأربعين ... الخ والكتاب يحدد انصبة اكثر من اربعين شخصية ، وفيهم عدد من النساء ، كما ذكر الكتاب نصيبا **لبنى جعفر بن ابى طالب**[٨١] ولبيت آخر هم **بنو عبيدة بن الحارث**[٨٢] .

---

(٧٩) انظر د. عون الشريف قاسم : نشاة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ٢٥١ – ٢٦٦ .

(٨٠) مجموعة الوثائق السياسية ٧٢ . والوسق (بفتح الواو وتسكين السين) فى اصل معناه : حمل البعير . وهو : ستون صاعا او ثلثمائة وعشرون رطلا عند اهل الحجاز ، واربعمائة وثمانون رطلا عند اهل العراق على اختلافهم فى مقدار الصاع والمد . [لسان العرب مادة وسق] ، وتجمع على أوسق (كانجم) ووسوق (كحمر) .

(٨١) جعفر بن ابى طالب هو ابن عم النبى ، وكان على راس المهاجرين الى الحبشة فى الهجرة الأولى والثانية ، وكان احد قادة مؤته الثلاثة الذين استشهدوا ، وقد وجد فى جسده اكثر من تسعين جرحا من ضربة او رمية [مغازى الواقدى ٤٠٣/١] .

(٨٢) هو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب استشهد يوم بدر سنة ٢ هـ (السابق ٤٣/١) .

ويلحق بهـــذا اللون من الكتب كتابه لبنى عريض اليهـــودى الذين أهـــدوا اليه هريسا فأكلها[٨٣] . فكتب النبى — صلى الله عليه وسلم — لهم كتابا اجرى فيه لهم كل عام عشرة أوسق من القمح ومثلها من الشعير فى كل حصاد ، وخمسين وسقا من التمر[٨٤] .

والكتب التى عرضناها وما شابهها تلتقى كلها فى صـــفة « **المنـــح والاعطـــاء** » للأسباب التى ذكرناها . وواضح أنها تعتمد على معالجـــة الموضوع معالجة مباشرة ، والألفـــاظ فيها محـــددة المـــدلول . اما كتب « الغنائم » فغاصة بالأرقام ، وسنفى هـــذا الجانب حقـــه عندما نعرض لخصائص اسلوب النبى — عليه السلام — فى رسائله .

---

(٨٣) امتاع الأسماع ٤٥٥ .

(٨٤) انظر نص الكتاب فى « الوثائق السياسية : ٧٣ .

(٥) الكتب الادارية والتنظيمية

وهــذا النــوع من الكتب يصــدق على الكتب التى تتعلق بتنظيم أمور الدولة وادارتها فى حالتى الحرب والسلم . ومنها ما يمكن أن نسميه **بكتب التولية والتنصيب** ، وهى الكتب التى يكلف فيها شخص معين بمهمة معينة كأن يكون واليا أو أمير حرب أو سفيرا أو جابيا أو ما شابه ذلك من الأمور ، والأصــل فى القواعــد السياسية هــو حظــر أن يطلب المسلم السلطة والامارة لنفسه ، وهى « من القواعــد التى قام عليها بناء الدولة الاسلامية ، وتعنى أن الذين يطلبون المناصب القيادية فى الحكومة بوجــه عام ، والخلافة بوجه خاص ، ويجتهدون فى ذلك هم اقل الناس كفـــاءة وصلاحية . . . يقول ــ عليه الصلاة والسلام ــ « **انا والله لا نولى على عملنا هــذا احــدا ساله أو حرص عليه** » . . . وقــوله لعبد الرحمن بن سمرة « **لا تسال الامارة فانك ان أوتيتها عن مسالة وكلت اليها ، وان أوتيتها عن غير مسالة أعنت عليها** »[٨٥] .

ومن كتب « التولية » كتابه لرفاعة بن زيد الخزاعى الذى قــدم على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هــدنة الحــديبية ــ اواخر سنة ست ــ ، فاسلم وحسن اسلامه ، وكتب له رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ كتابا الى قــومه ينص فيه على أنه بعثه الى قومه عامة ، ومن دخل فيهم ، ليقوم بمهمة الدعوة الى الله ورسوله . . .[٨٦] .

ومن هــذه الكتب ما فيه تحــديدات وأوامر ادارية وتنظيمية تحــدد بمقتضاها المهام والحقوق منعا للتداخل والالتباس فى الاستخدام والاستعمال

---

(٨٥) المودودى : الحكومة الاسلامية ٢٩٧ .

(٨٦) انظر نص الكتاب فى جمهرة رسائل العرب ٤٩ .

ككتابه — صلى الله عليه وسلم — لأكيدر دومه وهو اكيدر بن عبد الملك الكندى وكان ملكا على دومة الجندول ، وكان نصرانيا(٨٧) .

وقد يكون الكتاب اكثر تحـديدا اذ ينظم مسـالة معينة ويضع عقوبة قانونية للمخالف ككتابه لثقيف(٨٨) يحظر فيه قطـع عضاه وج(٨٩) وجعـل الجلد عقوبة للمخالف ، وفى حـالة الاسراف فى المخالفة يبعث بالمخالف لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى المدينـة ليرى فيه رايه .

ومن هـذا النوع ايضا كتاب كتبه رسـول الله — صلى الله عليـه وسلم — لأبى ضميرة واهـل بيته يعلن فيه اعتاقهم ، وانهم أهـل بيت من العـرب . ويوصى بهم من يلقـاهم من المسلمين(٩٠) . وقد شفع النبى صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب بقـرار عام هو « لا يفـرق بين والدة وولـدها »(٩١) .

والفرق بين هـذه الكتب والكتب التشريعية ان هذه الأخيرة تتعلق غالبا بالفروض الدينية واركان الاسلام وخصوصا الزكاة ، كمـا انها أكثر أطنابا وتفصيلا أما الكتب الادارية فهى تنظم مسالة محـددة على وجـه اليقـين . الا أن هـذا التقسيم يبقى فى النهـاية صناعيا هشا ، لأن الكتب التشريعية فيها ادراة وتنظيم .. كما أن الكتب الادارية والتنظيمية هى فى حقيقتها كتب تشريعية . فهـو تقسيم اعتمد على الطـابع « الغـالب » لا الطـابع المطلق .

---

(٨٧) انظر نص الرسالة فى فتوح البلدان للبلاذرى ٧٢ .
(٨٨) انظر جمهرة رسائل العرب ٥٤ .
(٨٩) العضاه : كل شجر عظيم وله شوك . ووج : واد فى الطائف . ويظهر ان هـذا الشجر فى هـذا الوادى بصفة عامة كان ذا فائدة تعم المجتمع ، وفى قطعه اضرار به .
(٩٠) انظر نص الكتاب والظروف التى ارتبطت به فى « اسد الغابة » ٦٤/٣ .
(٩١) اى فى حالة الاسترقاق .

(٦) كتب التجسس والاستطلاع

اقتضى بعد نظر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يؤمن الدعوة الى الدين الحنيف والأمان للصحابة والتابعين ، فادخل نظام العملاء السريين ، اذ كان العباس هو العميل السرى للرسول فى مكة ، والمنذر بن عمرو بن مساعد هو العميل السرى فى نجد ، وكانت مهمة هؤلاء العملاء جمع المعلومات ، واطلاع الرسول — عليه الصلاة والسلام — على سير الأمور فى مناطق عملهم . وهى مهمة تشبه الى حد كبير ما يقوم به السفير فى الوقت الحاضر ، فعليه متابعة الأحداث ، وما يجرى داخل البلد الذى يعمل فيه وسير الأمور ، ثم يرسل تقريرا بذلك لحكومته(٩٢) .

وقد قام العباس بن عبد المطلب بدور جليل فى هذا المجال فبقاؤه فى مكة ، وعدم هجرته الى المدينة كان فيه خير كبير للمسلمين ، وحينما سارت قريش لقتال النبى — صلى الله عليه وسلم — فى احد كتب العباس بن عبد المطلب كتابا الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع رجل من بنى غفار يخبره بذلك ، فقدم عليه وهو بقباء ، فقرأه عليه أبى بن كعب ، واستكتم أبيا . ونزل رسول الله — عليه السلام — على سعد بن الربيع

---

(٩٢) السفير محمد التابعى : الدبلوماسية فى الاسلام ١٧ .

ونحن لا نوافق الكاتب على استعمال كلمة « عميل » بالنسبة للصحابيين الجليلين لأن الكلمة فى استعمالها الحالى تعطى انطباعا كريها أن يوصف بها اذ توحى بالغدر والخيانة واستعمال الوسائل غير الانسانية ، وربما كانت الكلمة القديمة (عين) انسب وادق وادل على المعنى المراد .

كما نخالف الكاتب فى تشبيه « العميل السرى » بالسفير ، فبينهما فرق شاسع ، لا فى الشكل والاجراءات فحسب ، ولكن فى طبيعة المهمة المنوطة بكل منهما مما لا يتسع المقام لشرحه . والمنذر هو المنذر بن عمرو يصعد نسبة الى ساعدة بن كعب بن الخزرج وليس ابن مساعد كما وهم الكاتب ، وهو لم يؤد الدور الذى اكده الكاتب وهو التجسس فى نجد ، بل استشهد مع اصحابه على بئر معونة سنة ٤ هـ .

فأخبره بكتاب العباس ، فقال : والله انى لأرجو ان يكون فى ذلك خير[٩٣] . والكتاب كان من سطر واحد فقط ، ونصه : «**اصنع ما كنت صانعا اذا وردوا عليك ، وتقدم فى استمداد التاهب**»[٩٤] .

والكتاب بهذه الصورة يوحى — ويكاد يقطع — بانه رد على كتاب من النبى — صلى الله عليه وسلم — لم يخبرنا التاريخ بأمره ، يعرض النبى فيه خطة معينة على العباس فى حالة زحف قريش على المدينة ، اى أنه رد على كتاب سابق ، او على الأقل رسالة شفوية بعث بها النبى — عليه السلام — الى العباس — رضى الله عنه — لم ينقل لنا التاريخ فحواها .

ومن كتب الجاسوسية أو التخابر مع العدو كتاب **حاطب بن ابى بلتعة**[٩٥] ، الصحابى الذى أرسل الى قريش — والنبى يتهيأ لفتح مكة — كتابا يقول فيه « **ان رسول الله قد اذن فى الناس بالغزو ، ولا اراه يريد غيركم ، وقد أحببت ان يكون لى عندكم يد بكتابى اليكم** »[٩٥] ولكن الكتاب لم يصل الى قريش فقد كشف الله للنبى عليه السلام أمره ، واستطاع على والزبير — رضى الله عنهما — أن يدركا الرسول الذى حمل الكتاب وهى امراة مزنية . وقال حاطب لما استجوبه النبى « يا رسول

---

(٩٣) امتاع الأسماع ١١٤ .

(٩٤) مجموعة الوثائق ٥٠ .

(٩٥) حاطب بن ابى بلتعة صحابى جليل شهد بدرا ، وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — يثق به ويقدره ، لذا اختاره النبى — صلى الله عليه وسلم — ليحمل كتابه الى المقوقس عظيم القبط ، وقد دار بينهما حوار ، بعده اعجب به المقوقس وقال له « احسنت انت حكيم جاء من عند حكيم » . ولا شك ان ما فعله حاطب باخبار قريش باستعداد النبى — عليه السلام لحربهم — غلطة فى لحظة من لحظات الضعف البشرى لا تسوغ لبعض المتفرنجين من الكتاب أن يخوضوا ويشككوا فى اخلاق الصحابة . والنبى — صلى الله عليه وسلم — راى ان للرجل من الماضى المجيد ما يشفع له هذه الزلة ، وخاصة انها كانت الأولى فى حياته . وربما راى النبى ان هذه الرسالة لا قيمة لها من الناحية العملية لأن قريشا بعد مساعدتها لبكر فى قتال خزاعة احست أن النبى — صلى الله عليه وسلم — لن يسكت عن خرقها لماهدة الحديبية فبعثت بابى سفيان ياخذ جوارا من الرسول . [انظر اسد الغابة ١/٤٣١ — ٤٣٣] .

(٩٦) امتاع الأسماع ٣٦٢ .

الله ، لا تعجل على ، أما والله انى لمؤمن بالله ورسونه ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءا ليس لى فى القــوم من اصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهــرهم ولد واهل ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمــون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت اذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يدا يحمون بهــا قرابتى ، ولم افعله ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفــر بعــد الايمــان » .

ونظر النبى — صلى الله عليه وسلم — الى تلك الجناية التى ارتكبها بحسن نية . وهى تعــد فى الشرائع الوضعية من الخيــانة العظمى للدولة ، والعقوبة التى تستحقهــا هى عقوبة القتل . ولكنه نظــر الى من حــوله من اصحابه فقال لهم : « انه قد صدقكم ، ولا تقــولوا له الا خيرا » .

فقــال عمر « يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقــه فان الرجل قد نافق » .

فقال النبى — صلى الله عليه وسلم : « انه قــد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمــر لعل الله قد اطلع على أهل بدر يوم بــدر ، فقــال اعملوا ما شئتم فقــد غفرت لكم » .

وهذا يدل على أن عقوبة التجسس القتل ، لأن النبى — عليه السلام — ارشد الى أن علة تركه امر عمر بقتل حاطب انه من أهل بدر ، فدل على أن من فعل فعله ، ولم يكــن من أهل بدر يستحق القتل .

وقد رأى النبى — صلى الله عليه وسلم — بعد هذا أن يعفو عن حاطب بمــا له من حق العفو ، وراعى فى هــذا تلك الأحوال التى اقترنت بجنايته ، فخففت من امرها وجعلت العفو اولى من غيره فيهــا(٩٧) .

---

(٩٧) انظر عبد المتعال الصعيدى : القضايا الكبرى فى الاسلام ٤٠ .

وقد يلحق بهذا النوع من الكتب ما يكون تكليفا بمهمة تجسسية أو استطلاعية معينة ومثالها ما جاء فى امتاع الأسماع ص ٥٦ من أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كلف ابى بن كعب بكتاب فى قطعة من ادم وطواه دون أن يعرف احد ما فيه الا النبى وكاتبه . وسلمه لعبد الله بن جحش ومعه جماعة من المسلمين وامره أن يسير ومن معه فى طريق عينها له وامره الا يفتح الكتاب الا بعد مسير ليلتين .

وسار وفتح الكتاب فاذا نصه « **سرحتى تاتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، ولا تكرهن احدا من اصحابك على السير معك ، وامض لأمرى فيمن تبعك حتى تاتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، فترصد بها عير قريش** » .

* * *

ونلاحظ أن كتب التجسس هى اقل الكتب وجودا ، وربما كانت هى اقل الكتب ورودا فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — . كما نلاحظ انه ليس بين كتب النبى — عليه السلام — كتاب واحد نقل الينا يدور حول هذا الموضوع ، كان يكلف شخصا معينا بان يقوم بهذه المهمة ، مهمة التجسس فى أرض العدو ، وان كان كتاب العباس — رضى الله عنه يوحى بأن هناك كتابا من النبى يسبق كتاب العباس هذا .

(٧) الكتب الشخصية أو الخاصة

مفهوم الرسـالة الخاصـة :

اشرنا من قبل انى ان الرسالة الشخصية او الاخـوانية أو الرسالة الخاصة هى الرسالة التى تتناول موضوعا خاصا بين شخصين تربط بينهما — غالبا — علاقة انسانية أو علاقة نسبية كالمصاهرة والأخوة والأبوة كالرسائل بين الأصدقاء والأقارب فى الموضوعات الأسرية والمناسبات السارة أو المحزنة وما شابه ذلك . وهى تاتى مقابلة للرسالة العامة او الديوانية التى تتعلق بامر من أمور الدولة أو الشريعة او مصالح الناس فى الحرب والسـلم .

والرسالة تكون خاصة أو شخصية اذا ما دارت حول موضوع شخصى حتى لو كان طرفاها أو اطرافها شخصيات عامة كرؤساء وقـواد ووزراء لأن هؤلاء جميعا لهم جانبهم الشخصى وحياتهم الخاصة التى يشبهون فيها جميع النـاس(٩٨) .

ومن ثم نرى أن الصواب قـد جانب احـد الباحثين(٩٩) حين اعتبر من المراسلات الخاصة ما كتبه النبى — صلى الله عليه وسلم — الى عماله وأمراء سراياه ، وقـد تناولت امورا توجيهية هـدفها تفقيه أولئك العمال بأمور الدين ، وسياسة الرعية وجباية ما عليهم من صدقة أو جزية وغير ذلك . ومنها الرسائل الجوابية الموجزة التى تعرض الحلول الناجعـة ،

---

(٩٨) هناك ايضا ما يسمى « بالرسائل الادبية » ، وهو لون من الوان الكتابة الانشائية التى يحررها الكاتب الى غيره لغرض من الأغراض ، فتشمل الخطـاب كمـا تشمل الجـواب ، وتشمل المقالات الانشائية كما تشمل المناظرات الأدبية . [د. محمد نبيه حجازى : روائع الأدب فى عصور العربية الزاهرة ٢٣٤/١] .

(٩٩) غانم جـواد : الرسائل الفنية ٧٥ — ٧٩ .

والأسلوب الذى يجب أن يتبعه قائد الجيش ازاء من يعتنق الدين الجـديد ؛ كرسالته ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الى خالد بن الوليد جـوابا عما كتبه اليه باسلام بنى الحارث بن كعب . ومنها كذلك الرسائل التى بعث بهـا النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الى بعض المرتدين والمشركين أو الى من آزرهم ولم يعتنق الاسلام بعـد . وقريب من هـذا الضرب ما كتبه النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الى أكثم بن صيفى يعرفه بدعوة الاسلام ومبادئه السـامية .

* * *

والحقيقة أن كل هـذه الرسائل تعتبر رسائل عامة لأنها تدور حول أمور ومسائل تتعلق بالعقيدة والشريعة والادارة والحرب . وكل ما ذكره الكاتب من امثلة ينتسب تماما الى الأنواع والألوان التى عرضنا لهـا فى الصفحات السابقة وخصوصا الكتب التنظيمية والادارية ، وكتب الدعوة الى الاسلام . وهى لا تختلف عنها فى موضوعاتها والقيم التى تناولتها .

* * *

رسـالة الى معـاذ فى التعزية :

ولعل الرسالة الاخـوانية الخاصة الوحيدة التى نقلها لنـا التاريخ هى رسالة النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الى معاذ بن جبل يعزيه فى ابن له مات وفيه يقول « .... **فعظم الله لك الأجر ، والهمك الصبر ، ورزقنا واياك الشكر ، ثم ان انفسنا وأهلينـا وموالينا من مواهب الله السنية ، وعـوارفه المستودعة ... وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعـوارفه المستودعة ، متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك باجر كثير ...** »(١٠٠) .

---

(١٠٠) صبح الأعشى ٨٠/٩ .

ويشكك غانم جــواد فى الرسالة بقوله « ان التحقيق العلمى التاريخى ينفى صحة نسبة هــذه الرسالة للنبى »(١٠١) ولا يقــدم اى دليل على ذلك الا « اختلاف المؤرخين حــول شخصية ابن معاذ عبد الرحمن ، وهل ولد لمعاذ غيره . والشائع ان معاذ قــد ولد له ، وأن ابنه مات فى الشام بطاعــون عمواس فى خلافة عمر . . »(١٠٢) .

ولكن اختلاف المؤرخين فى شخصية ابن معاذ عبد الرحمن لا ينفى الرسالة بأية حال حتى لو تأكد على وجــه اليقين أن عبد الرحمن بن معاذ قــد مات فى طاعون عمواس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فليس هناك ما يمنع أن تكون الرسالة تعزية لمعاذ فى ابن غير عبد الرحمن فالرسالة لا تشير الى اسم الابن المعزى فيه .

وقــد يشك بعضهم فى الرسالة لأنه ليس فى الوثائق النبوية ما ينتسب الى مثل هــذا النوع من الرسائل . ولكن عــدم وجود غيرها لا ينفيها . ولا غرابة أن يعزى « النبى الانسان » صحابيا جليلا كان النبى يعتز به ، ويعترف له بالفضل والعلم(١٠٣) .

---

(١٠١) الرسائل الفنية ٧٧ .

(١٠٢) السباق نفس الصفحة .

(١٠٣) ولاه النبى — صلى الله عليه وسلم — على اليمن ، فلم يزل باليمن حتى توفى النبى . وقــد جاء فى الأثر قــول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « ... واعلمهم بالحــلال والحرام معاذ بن جبل » . وقال جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — « كان معاذ بن جبل من احسن الناس وجها ، واحسنه خلقا ، واسمحه كفا .. » . وقال ابن مسعود « إن معاذ بن جبل كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يكن من المشركين » . [انظر اسد الغابة ٥/١٩٤ — ١٩٧] .

(١٠٤) سنعرض لذلك بالتفصيل فى الفصل الأخير من هــذه الدراسة . وهــو الفصــل التــالى .

(٨) الكتب الجوابية

وهى الرسائل التى لم تكتب ابتداء اعتمادا على غرض معين ، ولكنها تكتب ردا على رسالة وجهت للرسول — صلى الله عليه وسلم — فارتباطها موضوعيا يكون بالرسالة الأولى .

وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو الذى أدبه ربه واحسن تاديبه يحرص على أن يجيب عما يبعث اليه من الكتب حتى ما خبث منها وأساء الى الدين والخلق ، فقد كتب اليه مسليمة الكذاب كتابا من هذا النوع فكان رده « **بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسليمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى . اما بعد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** »(١٠٥) .

ومن كتبه الجوابية رده على خالد بن الوليد ، وكان خالد قد ارسل اليه كتابا يخبره فيه باسلام بنى الحارث بن كعب ، ويسأل عما يفعل ، فكان رد النبى — عليه السلام — ، وفيه يطلب منه أن يبشرهم وينذرهم ، وأن يقبل الى المدينة ، ويقبل معه وفدهم(١٠٦) .

ويلاحظ أن النبى — صلى الله عليه وسلم — يذكر فى رده خلاصة لكتاب خالد المردود عليه تذكيرا بمضمونه لأن وصول الكتاب يستغرق وقتا طويلا اذ كانت مساكن بنى الحارث فى نجران .

وقد يمتد حبل التراسل فيكون هناك ما يمكن ان نسميه « **رد الرد** » . ومن نماذجه رد النبى — صلى الله عليه وسلم — على كتاب ارسله اليه المنذر بن ساوى ملك البحرين ردا على كتاب النبى — صلى الله عليه وسلم — يدعوه فيه وقومه الى الاسلام ، والذى حمله اليه العلاء بن الحضرمى فى العام السادس للهجرة .

---

(١٠٥) سيرة ابن هشام ١٨٩/٤ . وانظر كذلك كتاب ابى سفيان ورد النبى عليه . [امتاع الأسماع ٢٣٩ — ٢٤٠] .

(١٠٦) انظر نص الكتاب فى صبح الأعشى ٣٧٦/٦ .

(٩) كتب الآخرين

كانت رسائل النبى — صلى الله عليه وسلم — هى أكثر ما نقله لنا التاريخ من وثائق ، فهى فى مجموعها أكثر من الرسائل والعهود التى كتبها غيره من المسلمين أو الكفار أو المرتدين ، **ويرجع ذلك الى أسباب متعددة اهمها :**

١ — نشوء الدولة الجديدة وما يقتضيه ذلك من الكتب والرسائل والمعاهدات ، على ما بينا سابقا .

٢ — الاهتمام بكتابة السنة النبوية — ومنها كتبه — وهى تأتى فى هذا المقام بعد كتاب الله . فكان من الطبعى ان تنال كتبه — صلى الله عليه وسلم — من الاهتمام حفظا وتسجيلا اكثر مما تنال كتب الصحابة ، وكتب معاصريه من غيرهم .

٣ — كثير من هذه الكتب كان عهود أمان واقطاعات تنص على حقوق معينة لأصحابها ، ومن ثم حرصوا على حفظها وتوارثها جيلا بعد جيل .

* * *

وكتب الآخرين نوعان :

١ — كتب انشائية .

٢ — كتب جوابية .

واعنى بالنوع الأول ما كتبه أصحابه ومعاصروه ابتداء دون ارتباطه بكتاب سابق عيه . مثل كتاب خالد بن الوليد الى النبى — صلى الله عليه وسلم — يخبره باسلام بنى الحارث — وكان النبى — عليه السلام — قد

بعثه اليهم فى العام العاشر يدعوهم الى الاسلام وفيه يخبره بأنهم قد اسلموا وانه « مقيم بين أظهرهم ، يأمرهم بما أمرهم الله به ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ، ويعلمهم معالم الاسلام ، وسنة النبى — صلى الله عليه وسلم — ... »(١٠٧) .

ومن كتب غير المسلمين كتاب مسيلمة الكذاب الى النبى — صلى الله عليه وسلم — فى أواخر العام العاشر الهجرى ونصه :

« من مسليمة رسول الله الى محمد رسول الله :

سلام عليك ، اما بعد فانى قد أشركت فى الأمر وان لنا نصف الارض ، ولكن قريشا قدم يعتدون »(١٠٨) .

ومن هذه الكتب عهود مثل **عهد العلاء بن الحضرمى لأهل البحرين**(١٠٩) . وهو عهد موجز مباشر يبرز شروط الصلح ومنها مقاسمتهم التمر ودفع الجزية دينارا فى العام من كل حالم .

اما الكتب الجوابية فهى ما كانت ردا على رسائل سابقة ؛ ولم تنشأ ابتداء : كالرسائل التى كانت ردودا على كتب للنبى عليه السلام مثل رد كل من النجاشى والمقوقس والمنذر بن ساوى وهوذة بن على .

* * *

وبعد ان سرنا هذا الشوط مع الرسائل فى عهد النبوة المحمدية ؛ وقد استغرقت رسائل النبى — عليه السلام — أغلب هذه المسيرة التى كان هدفها الدراسة الموضوعية لهذه الرسائل ؛ والوقوف مع مضامينها وقيمها ، وما أحاط بانشائها من ظروف ... بعد هذه المسيرة بقى علينا أن نقف وقفة متانية امام هذا التراث لنستخلص منه ملامحه الجمالية ومعالمه الفنية .

---

(١٠٧) انظر نص الكتاب فى صبح الأعشى ٦/٤٦٥ .
(١٠٨) البلاذرى : فتوح البلدان ٩٧ .
(١٠٩) البلاذرى السابق ٨٩ .

الفصل الرابع

الملامح والسمات الفنية

الفصاحة النبوية : مصادرها وطبيعتها(١)

جاء عصر صـــدر الاسلام ليضيف الى المنابع الأدبية منبعا غنيا ثرارا هـــو القرآن الكريم ووقف الجميع امام هـــذا المنبع مبهورين :

١ ـ فهو يمثل قمة البلاغة العربية التى لم يعهد العرب مثلها من قبل ، مع أن لغته هى لغتهم ، وحروف كلماته هى حروف كلماتهم .

٢ ـ وهـــو موضوعيا يحمل من القيم والمبادىء ما احـــدث اكبر تحول اجتماعى وسياسى وخلقى فى تاريخ البشرية .

٣ ـ وأهم دواعى الانبهار والدهشة أن الذى اتى بهـــذا الكتاب رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وهـــذا فى ذاته أقطع الأدلة على أن القرآن من عند الله ، وانه ليس بقول بشر .

وكانت البلاغة القرآنية بسحرها البيانى تتسلل الى القلوب فتعطفها الى الايمان ، وتخرجها من الظلمات والشك الى النور والحق واليقين(٢) .

---

(١) عرضنا للسمات والملامح الفنية لأسلوب الرسائل يعنى تقييم اسلوب هذه الرسائل فى عصر النبوة .. وقد رأينا فى الفصول السابقة انه كان هناك رسائل للنبى صلى الله عليه وسلم وغيره .. ولكن اغلب هذه الرسائل او ما نقل الينا منها كان للرسول ـ عليه السلام ـ لأسباب ذكرناها من قبل .

لذلك سيكون حديثنا فى هـذا الفصل يعتمد على النظر فى خصـائص اسلوب « الرسائل النبوية » بصفة اساسية . ولكن ذلك لا يعنى اغفال خصائص رسائل الآخرين لأن بحثنا عن « الرسائل فى عصر النبوة » لا رسائل النبوة .

(٢) اقـرأ فى ذلك روايتين مختلفتين عن اسـلام عمر بن الخطاب ، وكلتاهما تلتقيان فى ان العامل الأساسى فى جذبه الى الاسلام هو قراءته بعض آيات من القـرآن الكـريم او استماعه له . [السيرة النبوية لابن هشام ٢٣٢/١ ـ ٢٣٧] .

ومن الطبيعي أن يكون أول المتأثرين بالبيان القرآني هو حامل الرسالة محمد بن عبد الله — عليه السلام — فاستقى من هذا المعين الكريم ، وجرت الكلمات القرآنية على لسانه ، وجاءت البلاغة النبوية في المرتبة الثانية من البلاغة القرآنية ، ولكن أغرب الأشياء — كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعي : أنك اذا قرنت كلمة من البلاغة النبوية الى مثلها مما في القرآن الكريم . رأيت الفرق بينهما في ظاهره كالفرق بين المعجزة وغير المعجز سواء[3] .

ومما رآه العلماء في أسباب فصاحة محمد — صلى الله عليه وسلم — انه كان قريشيا هاشميا ، وقريش من أفصح قبائل العرب ، وبلغتها نظمت المعلقات ، وعلى لسانها دار حديث الشعراء في عكاظ .

واضافة الى هذه الفصاحة الموروثه ترشف محمد فصاحة أخرى في بني سعد موطن رضاعه وفي بني زهرة موطن أخواله ، وفي بني اسد أهل زوجته السيدة خديجة ، وفي بني عمرو — وهم الأوس والخزرج موطن مهاجرته الى المدينة المنورة[4] .

ومن مصادر فصاحته وأسبابها المهمة « قوة الفطرة »[5] وقد كانت هذه الفطرة — كما وصفها الرافعي — توفيقا من الله وتوقيفا ، اذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من السنتهم ، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة ، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم ... فمنهم الفصيح والأفصح ، ومنهم الجافي والمضطرب ... فكان — صلى الله عليه وسلم — يعلم ذلك على حقه ، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون الا

---

(٣) مصطفى صادق الرافعي : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٣٦ .
(٤) د. بكرى شيخ امين : ادب الحديث النبوى ١٠٢ .
(٥) انظر السابق نفس الصفحة .

أفصحهم خطابا ، وأسدهم لفظا ، وابينهم عبارة[٦] .... وقد فضلهم بقوة الفطرة واستمرارها وتمكنها ، مع صفاء الحس ونفاذ البصيرة واستقامة الأمر كله[٧] .

واذا كان القرآن يمثل « القمة البيانية » باطلاق ، فان السنة النبوية تمثل قمة البيان البشرى على الرغم من أمية صاحبها[٨] حتى أنك اذا قرنت كلمة من البلاغة النبوية الى مثلها مما فى القرآن ، رايت الفرق بينهما فى ظاهره كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء ، ورأيت كلامه — صلى الله عليه وسلم — فى تلك الحال خاصة مما يطمع فى مثله ، واحسست أن بين نفسك وبينه صلة تطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المطمعة فيه ، بخلاف القرآن ، فانك تستيئس من جملته ، ولا ترى لنفسك اليه طريقا البتة ، اذ لا تحس منه نفسا انسانية ، ولا اثرا من آثار هذه النفس ، ولا حالة من حالاتها حتى تانس الى ذلك على التوهم ، ثم تتوهم الطمع والمعارضة من هذه الأنسة ، فتمضى عزمك ، وتقطع برايك ، وتبت القول فيه — كما يكون لك فى قراءة الكلام الانسانى ، فان جميع هذا الكلام الآدمى منهاج ، وجملته طريق ، وحدود البلاغة التى تنفصل بعضه عن بعض ، كلها مما يوقف عليه بالحس والعيان ، ويقدر فرق ما بين بعضها الى بعض مهما بلغ منتفاوتها واختلافها فى السبك والصنعة والغرابة[٩] .

وقد وصف الجاحظ بيان الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصفا جامعا اشتهر على مدار التاريخ فقال « هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان — كما قال الله تبارك وتعالى — قل يا محمد وما أنا من المتكلفين . فكيف

(٦) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣١٥ .
(٧) السابق ٣١٧ .
(٨) جابر قميحة : أدب الخلفاء الراشدين ١٢ .
(٩) الرافعى : السابق ٣٦٦ .

وقـد عاب التشديق وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قـد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . وهـذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عـدد الكلام ، ومع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قـدم ولا بارت له حجـة ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطول بالكلام القصير ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحـق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا اصـدق لفظا ولا أعـدل وزنا ولا اجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا اسهل مخرجا ولا افصح عن معناه ولا ابين فى فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم(١٠) .

* * *

هـذه هى الفصاحة النبوية ، وذلك هـو البيان المحمدى بصـفة عامة سواء اكان خطابة أم كتابة ، وهـو الذى أدبه ربه فاحسن تاديبه . والبلاغة النبوية ومظاهرها فى خطب الرسول وكتبه وحـديثه مقام أكبر من حـدود بحثنا . لكن كان لابد من التعرف على حـدود البلاغة النبوية ومصادرها بشكل اجمالى . ثم بعـد ذلك نرى أبعاد كل ذلك ومدى توفره فى رسائله ، عاطفين كذلك على « رسائل الآخرين » فى لاعصر النبوى بقـدر ما نقـل التاريخ الينا .

---

(١٠) البيان والتبيين ٢/٨ .

منهج الرسالة النبوية

هل كان للنبى — صلى الله عليه وسلم — منهج خاص فيما يتعلق بشكل كتبه ورسائله ، او بتعبير آخر أكان له ما يمكن أن نسميه « تقاليد كتابية » فى طريقة بدء الرسالة وانهائها ونوعية العبارات المستخدمة فى مخاطبة الآخرين وصورة الاشهاد ... الخ وسنحاول فى السطور الآتية الاجابة عن هذا السؤال . وباستقراء كتب الرسول ورسائله وعهوده نلاحظ فيها — من الناحية الشكلية والمنهجية المعالم الآتية :

١ — افتتاح الرسالة بالبسملة :

نقل بعضهم عن الشعبى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان يفتتح كتبه بعبارة باسمك اللهم . ثم نزل قول تعالى « **بسم الله مجراها ومرساها** »(١١) فكان الافتتاح « باسم الله ما شاء الله » ثم نزلت « **قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن** »(١٢) فكتب « باسم الله الرحمن » فجرت بذلك ما شاء الله . ثم نزلت « **انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم** »(١٣) .

وهذا يعنى أن افتتاح رسائل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مر **بالمراحل الآتية :**

(أ) باسمك اللهم . وهى العبارة التى كانت سائدة فى الجاهلية .

(ب) باسم الله ما شاء الله .

(جـ) باسم الله الرحمن .

(د) بسم الله الرحمن الرحيم .

---

(١١) هود ٤١ (مكية) .

(١٢) الاسراء ١١٠ .

(١٣) النمل ٣٠ . انظر الكتانى التراتيب الادارية ١/١٤٠ .

والمراحل الثلاث الأخيرة التى يمكن ان نسميها مراحل اسلامية ارتبطت بنزول آيات قرآنية كانت هى السبب فى انتقال النبى — صلى الله عليه وسلم — من افتتاح الى آخر حتى استقر الأمر على بسم الله الرحمن الرحيم .

وهو كلام ظاهر الافتعال — من وجهة نظرنا — لاسباب متعددة :

أولها : أن هذه الآيات كلها مكية .. وارتباط تطور الافتتاح بها يعنى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كتب عددا كبيرا من الرسائل قبل الهجرة لأن مفهوم الرواية يعنى أن كل « افتتاح » يمثل مرحلة اطردت فيها الكتابة على هذا النحو . وهذا ما لم يقل به احد . فالبداية الحقيقية لكتابة الرسائل كانت بعد الهجرة وربما سبق ذلك رسالة أو رسالتان منهما عهد النبى لسراقة بن مالك بسوارى كسرى . ولم يرو بنصه ، والثانى بعث به النبى الى مصعب بن عمير مبعوث النبى الى المدينة يطلب منه اقامة صلاة الجمعة بالمسلمين(١٤) .

وثانيها : ان البسملة كانت معروفة للنبى — صلى الله عليه وسلم — وللمسلمين قبل نزول هذه السور كلها وان اختلف بشأنها على ثلاثة اقوال هى :

(أ) أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها وهو قول مالك .

(ب) أنها آية من كل سورة ، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(ج) أنها آية من سورة الفاتحة فقط وهو قول الشافعى وينقل عنه قول آخر وهو انها آية من كل سورة(١٥) .

---

(١٤) حميد الله : مجموعة الوثائق ٣٥ . وهى الرسالة الوحيدة التى اتى بنصها قبل الهجرة وان كان قد اشار الى عهد النبى لسراقة وذكر أن الكتاب لم يرد له نص .
(١٥) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ٨١/١ وانظر سيد قطب فى ظلال القرآن ٢١/١ .

والقول الأول — قول الامام مالك — ليس عليه دليل . والخلاف يكاد ينحصر فى الرأى الأول والثانى . فلو أخذنا بالقول الثانى وانها آية من كل سورة لكان هذا يعنى أن المسلمين يعرفون البسملة من اول ظهور الاسلام اى من ابتداء نزول القرآن بسورة العلق . وعلى الرأى الثانى وهو أن البسملة آية فى أول الفاتحة فقط يترتب عليه أيضا معرفة البسملة قبل الآيات السابقة التى وردت فى هود والاسراء والنمل لأن سورة الفاتحة سبقت فى النزول هذه السور كلها باتفاق[١٦] .

ويكاد يطرد البدء بالبسملة فى اغلب كتب الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعهوده ورسائله الى أصحابه وغيرهم من المشركين واليهود والملوك الا اقل القليل من هذه الكتب ككتابه الى ابى سفيان ردا على كتابه اليه أيام الخندق[١٧] وربما سقطت البسملة من الكتاب أو محيت بفعل الزمن .

والخلاصة ان البسملة تكاد تكون سمة فارقة فى رسائل النبى — صلى الله عليه وسلم — فى هذا انعهد ولم يرد عنه فى رواية صحيحة أنه استهل واحدا من كتبه بعبارة « باسمك اللهم »[١٨] كما لم يرو عنه انه استهل كتبه بجزء من البسملة مثل باسم الله ، أو باسم الرحمن أو باسم الله الرحمن » وانما البسملة كاملة أو محذوفة برمتها »[١٩] .

* * *

---

(١٦) فسورة الفاتحة هى رابعة السور المكية نزولا بعد المدثر والمزمل والعلق على الترتيب .

(١٧) سجلنا نص الكتابين فى المختارات بآخر الكتاب .

(١٨) ولا يرد على ذلك بما حدث يوم الحديبية واستهلال العهد بهذه العبارة ، فذلك ظرف خاص وهو لا ينقض القاعدة . وقبول النبى — عليه السلام — ذلك يدل على مرونة وبعد نظر كما عرفنا من نتائج هذه المعاهدة فى الفصل السابق .

(١٩) د. نصار : نشأة الكتابة الفنية ٣٨ .

هــذا عن استهلال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كتبه بالبسملة أما المشركون فى عهده فكانوا يستهلون كتبهم بعبارة **باسمك اللهم** كما نرى فى كتاب ابى سفيان الى النبى فى أيام الخندق « **باسمك اللهم . فانى احلف باللات والعزى ....** » .

ويظهر انه كان تقليدا متبعا فى كتب الجاهليين ومعاهداتهم يدل على ذلك اصرار سهيل بن عمرو على ان يستهل صــلح الحــديبية بها بدلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وبعض الكتب التى نقلت الينا من العصر الجاهلى فيها هــذا الاستهلال « باسمك اللهم » كما نرى فى كتاب عمرو بن هند الى عامله بالبحرين وهو ما يسمى بصحيفة المتلمس يأمره فيهـا بقتله[٢٠] ، وكتــاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة[٢١] ولكن بعض الكتب المنقولة لنــا فى الجاهلية لم تلتزم هــذا الافتتاح .

٢ ــ ذكر طرفى الكتاب :

وهى لازمة من لوازم الكتب جميعا تستوى فى ذلك كل ألوان الكتب على اختلاف موضوعاتها وأطرافها :

(أ) ففى المعاهدات وكتب الصلح : « هــذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب .... » . هــذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » .

---

(٢٠) جمهرة رسائل العرب ١٢/١ .

(٢١) السابق ٢٥/١ .

وقد نقل صاحب الجمهرة قصة خرافية طريفة . عن بعض المصادر القديمة فى سبب التزام العرب عبارة باسمك اللهم (هامش ١٣) .

(ب) فى كتب الاقطاع والأمان : « هــذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين .... » . « هــذا كتاب من محمد رسول الله لبنى صخرة بأنهم آمنون .... »

وفى كتبه الى الملوك والحكام والعمال : « من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم .... » .

ونسجل فى هــذا المقام ملاحظتين :

الأولى : ان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يذكر اسمه دائما قبــل الطرف الآخر .

والثانية : أنه يذكر دائما اسمه بوصف الرسالة أو النبوة « من محمد رسول الله .... » ــ « من محمد نبى الله .... » ونادرا ما جمع بين وصف النبوة والرسالة كما نرى فى رده على خالد بن الوليد « من محمد النبى رسول الله الى خالد بن الوليد .... »[٢٢] .

أما الكتب الموجهة اليــه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فهى بالنظر الى أطرافها انواع :

فمنها ما لا يذكر الطرفين ككتاب ابى سفيان اليه . ورد المنذر بن ساوى على كتابه . ورد هــوذة على كتابه الذى يدعوه فيه الى الاسلام .

ومنها ما يذكر الطرفين ويؤخر اسم الرسول ــ عليه السلام ــ ويقدم نفسه عليه تبجحا وسوء أدب ككتاب مسليمة الكذاب اليه بعد ردته[٢٣] .

---

(٢٢) انكر القارىء ان النبى ـ صلى الله عليــه وسلم ـ لم يكتب اسمه مجـردا « محمد ابن عبد الله » الا مـرة واحـدة وكان ذلك فى صلح الحديبية . وقد شرحنا فى الفصــل السابق تعليـل ذلك وتفاصيل ما حـدث فى هـذا اليوم .

(٢٣) ذكرنا الكتاب فى المختارات .

ومنها ما يذكر الطرفين ويقــدم رسول الله (المرسل اليه) على نفسه ويكون هؤلاء غالبا من المسلمين ككتاب خالد اليه « لمحمد النبى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من خالد بن الوليد .... » — ورد النجاشى عليه « الى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن ابجر .... الخ وواضح ان الدافع الى ذلك هو تبجيل مقام النبى وتعظيم مقام النبوة فيه .

٣ — التحيــة بالســلام :

كانت التحية بالسلام لازمة من لوازم رسائل النبى — صلى الله عليه وسلم — المبعوثة الى الآخرين دون غيرها من الكتب والعهود . ونلاحظ ان التحية بالسلام ترد ترتيبا بعــد البسملة وذكر طرفى الرسالة أو اطرافها .. ولكنها لم تأخــذ صورة واحــدة .. **بل تعــددت صورها تبعا لشخصية من ترسل اليه الرسالة على النحو التالى :**

(ا) فاذا كان من أرسلت اليه الرسالة مسلما استعملت عبارة **ســلام عليــك** . وغالبا ما ترتبط عبارة السلام بحمد الله كما نرى فى رده على خالد بن الوليد وفى كتابه الى معاذ بن جبل يعزى فيه ابنه « .... **سلام عليك فانى أحمد اليــك الله الذى لا اله الا هــو** .... » .

(ب) واذا كان من ترسل اليــه الرسالة غير مسلم فتستخدم عبــارة « **سلام على من اتبع الهــدى** .... » ولا يتلو العبــارة ذكر لحمد ، كما نرى فى كتابه الى المقوس وهرقل . ولكن قــد تكون أكثر تفصيلا كما نرى فى كتابه الى الحارث بى أبى شمر الغسانى « **سلام على من اتبع الهــدى وآمن بالله وصــدق** .... » .

أما التعبير الثالث لهــذه الفئة فهو « **سلم انت** » واستخدمه النبى — صلى الله عليه وسلم — فى كتابه للنجاشى .

وقــد يقترن بحمد الله كما نرى فى كتابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ للمنذرين ساوى ملك البحرين « **سلم أنت فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا هــو ....** » .

وممـــا يدل على ان عبارة « **سلام عليكم** » كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يختص بها المسلمين دون غيرهم . ان بعض هؤلاء المشركين حينما اجابوه على كتبه اليهم غير العبارة فى كتبه التى رد بها على هــذه الردود الى « **ســلام عليــك** » ما نرى فى رده على « رد النجاشى » ، ورده على « رد المنذر بن ساوى » وقــد ابدى كل منهما اقتناعه بالاسلام ودخوله فيـــه .

(ج) وندر أن نجــد من كتبه ما فيه حمد الله دون سلام ككتابه الى أكثم بن صيفى[٢٤] .

(د) وقــد تخلو الرسالة من السلام ، ولكن هــذا يحــدث قليلا كما نرى فى رده على المنذر بن ساوى وكتابه الى أكيدر دومة بعــد اســلامه .

(هـ) وقــد تخلو الرسالة من البسملة والحمد لله ، ولا تحمل الا صلب الرسالة ولا يكون ذلك الا فيما يمكن أن نسميه « الرسائل السرية » ولهـــا طابع العجلة وتشبه « الأوامر العسكرية » فى وقتنـــا الحاضر . ككتابه الذى سلمه عبد الله بن جحش وامره الا يفتح الكتاب الا بعــد السير الى مكان معين وفتحه فاذا به « امر مباشر » بلا مقــدمات الى عبد الله بن جحش بأن يرصد عير قريش[٢٥] .

---

(٢٤) جمهرة رسائل العرب ٦٩ . وقد ارسل اليه النبى - صلى الله عليه وسلم - هـذا الكتب يعرض فيه دعوة الاسلام ، فسار اليه ولكنه مات فى الطريق .

(٢٥) انظر الكتاب فى امتاع الأسماع ٥٦ .

(و) أما الكتب التى كانت ترد من الكفار الى النبى واشهرها كتـاب أبى سفيان اليه فكانت تخلو تماما من السلام ، وهـذا طبيعى لأنها كانت تعبر عن نفوس حانقة ناقمة حاقدة تتمسك بالشرك والضـلال .

٤ — اما بعـد :

وكانت تذكر بعـد السلام .. وقـد وردت كثيرا فى كتب الرسـول — عليه السلام — وكذلك الأمر فى خطبه[٣٦] ولكنها لا تطرد فى كل كتبه — عليه السلام — فمنها ما لم يذكر فيها (أما بعـد) ككتابه للحارث بن ابى شمر وكتابه الى هـوذة بن على .

وعبارة **أما بعـد** كانت ترد كذلك فى كتب الجاهلية ، فهى ليست سمة اختصت بها كتب الرسول — عليه السلام — أو كتب أصحابه .

والمطرد فى كل الكتب من جاهلية واسلامية سواء أكانت صادرة من النبى — عليه السلام — أو الآخرين أن موضوع الرسالة يرد بعـدها مباشرة . وهـذا ما نجـده فى رسائل النبى — عليه السلام — دون استثناء .

٥ — ختـام الرسـالة :

اذا ما تركنا صـدور الرسائل ونظرنا الى أعجـازها وجـدناها أكثر اختـلافا . اذ ينتهى كل منهـا بحسب موضـوعه ، ولكـن الرسـول — صلى الله عليه وسلم — كان يعتمـد بعض الخواتم احيانا كالسلام مثلا ، وله عـدة صور : السلام العادى اذا كان المكتوب له مسلما ، او غير مسلم احيانا ، وربما دعا له بعـد السلام ، فيقول « والسلام ورحمة الله ، يغفـر

---

(٣٦) انظر : الكتانى : التراتيب الادارية ١٤١/١ .

الله لك » . فـــاذا كان غير مسلم قال فى السلام : « والسلام على من اتبـــع الهـــدى » أو « والسلام عليكم ان اطعتم » . وكان الكاتب فى بعض الأحايين يدون اســـمه فى خاتمة الرسالة ، فيقول : « وكتب فـــلان »(٢٧) .

* * *

هـــذا هو منهج « الرســـالة » النبوية او تخطيطها من ناحية الشكل بصفة عامة ونستطيع ان نوجـــزه ـــ اعتمادا على ما غلب عليهـــا ـــ فى الخطوط الآتية :

١ ـــ البـــدء بالبسملة أو البسملة والحمد .

٢ ـــ ذكر أطراف او طرف الرسالة بدءا بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم موصوفا بالرسالة أو النبوة أو هما معا .

٣ ـــ عبـــارة أما بعـــد .

٤ ـــ صلب الرسالة أو الموضـــوع الأساسى الذى كتبت من اجـــله الرســـالة .

٥ ـــ الختام بالسلام ، أو ما دار فى فلكه .

---

(٢٧) حسين نصار : نشـــاة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ٣٩ .

وعلينا ان نلاحـــظ ان التقليد الذى سار عليـــه النبى - صلى الله عليه وسلم - وخلفاؤه الراشـــدون فى كل المهـــادنات وعقـــود الصـــلح انهـــا كانت تشتمل فى نهايتها على اسماء الرجال الذين شهدوها وشهدوا عليهـــا ، وهو ما فعـــله النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مهادناته مع المشركين من قريش واليهـــود والنصارى من اهل نجران وغيرهم [اقـــرأ فى ذلك كتاب « المعاهـــدات والمهادنات فى تاريخ العـــرب لمحمـــد عبد الغنى حسن » ، وخصوصا الصـــفحات من ٦٧ - ٧٣] .

المضمون بين الرسالة والخطبة

اشرنا من قبل الى أن الرسـالة تختلف عن الخطبة من نواح ثلاث :

الأولى : أن الخطبة ــ فى ذلك العصر والعصر الجاهلى بصفة خاصة ــ هى بنت البديهة والارتجال ، وهى بنت ساعتهـا أو لحظتها بلا اعداد أو تهيؤ . أما الرسالة فيسبقها التانى ، وتتطلب أعمال العقل ، وقـد تقتضى المراجعة والمعاودة[٢٨] .

والثانية وهى نتيجة للسمة الأولى : أن عنصر الفكـر فى الرســالة أغلب منه فى الخطبة[٢٩] .

اما الثالثة : فهى أن الرسائل والعهـود المكتوبة ادل واصـدق فى التقييم الفكرى والفنى من الخطب[٣٠] ، لأن الخطب نقلت مشافهة ، وتناقلتها الأفواه الى ان سجلت بعد عشرات من السنين ، أما الرسائل والعهـود فهى ابقى وأثبت على الزمان لأنها وثائق مسجلة مكتوبة[٣١] .

واذا ما نظرنا الى خطب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ورسائله فى ضوء عناصر الحكم السابق استطعنا أن نقرر ــ بصفة عامة ــ ان خطب الرسول ــ عليه السلام ــ اعمر بالعناصر التصويرية والفنية من رسائله ويرجع ذلك الى الأسباب الآتية :

---

(٢٨) وهذا لا ينفى ان هناك من الخطب ما يعـد قبل القـائه ، ومن الرسائل ما فيـه طابع العجـلة .

(٢٩) الحـكم قائم على الغالب الأعم ، فمن الخطب ما هو اعمر بالفكـر من كثير من الرسائل مثل الخطب التشريعية ، كخطبة النبى فى حجة الوداع .

(٣٠) لأن نحل الخطب اسهل من نحل الرسائل فى الأغلب الأعم ، ومن ثم تحمـل الخطبة ملامح لا تمثـل فـن من نسبت اليه .

(٣١) انظر جابر قميحة ، أدب الخلفاء الراشدين ، ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

١ — أن الخطيب يتحدث الى « الجماهير » ويحرص على التأثير فيهم ، وحرصه على جذب عواطفهم مستميلا أقوى من حرصـــه على كسب عقولهم مقتنعـــا ،وأن كانت خطب النبى عليه الســـلام قد جمعت بين « الاستمالة والاقناع » ، والتصوير والتمثيل من أهم عناصر الاستمالة ، كما انه عنصر مهم كذلك فى الاقناع . وله فى خطبه وأحاديثه الآيات البارعات فى التشبيه والتمثيل مثل قوله فى خطبة القاها بعد صلاة العصر :« **الا ان الدنيا خضرة حلوة ، ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء...**» ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس الا حمرة على أطراف السعف فقال : **انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى** »(٣٢) .

اما الرسالة فهى موجهة الى فرد فى الغالب ، وأحيانا الى جماعة فى شأن محدد معين لا يتسع مجاله — فى ذلك الوقت على الأقل — الى ما يتسع نه مجـــال الخطبة للاعتبار السابق الذى ذكرناه .

٢ — من ألوان الكتب كالمعاهدات وكتب الغنائم ما يستلزم استعمال الأسلوب التقريرى المباشر والكلمات ذات الدلالة الواحـــدة المحددة بعيدا عن التزيين انبلاغى والتزويق الفنى حتى لا يذهب العقل فى تفسير هذه الكتب او بعض نصوصها مذاهب ، ويفتح ذلك الباب على مصراعيه للخـــلافات والصراعات والتقاتل وشـــحن النفوس بالعداوة والبغضاء .

ففى مثل هذه الكتب بصفة خاصة لا يعمد انى تزويق ، انما يعمد الى فكرته ، وتبليغ دعـــوة الاسلام ورسالته فى غير اسهاب وفى غير صنعة أو تكلف(٣٣) .

(٣٢) جمهـرة خطب العرب ١٥١/١ ، وهـذه الرواية تدل على ان الخطبة استغرقت ساعات ، ولكن ما بين ايدينـا سـطور منها تعـد على أصابع اليـد الواحـدة ٠ وهـذا دليـل ايضـا على ان ما لم يصل الينا من خطب الرسـول - عليه السلام - اضعاف ما بين ايدينا ٠

(٣٣) د٠ شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العـربى ٩٨ ٠

بين الاطنـــاب والايجـــاز

وتثور فى المباحث البلاغية عنـــد تقييم الأساليب مســـألة التفضيل بين الايجاز والاطناب ، فهناك من يرى أن البلاغة ايجـــاز ، وأن خير الكلام ما قل ودل ، وان الزيادة فى الحـــد نقصان(٣٤) .

وهناك من يفضل الاطناب على الايجاز بدعوى أن المنطق « انما هو بيان ، والبيان لا يكون الا بالاشباع ، والشفاء لا يكون الا بالاقناع ، وافضل الكلام ابينه ، وابينه اشـــد احاطة بالمعـــانى ، ولا يحاط احاطة تامة الا بالاســـتقصاء(٣٥) .

والواقع أن المفاضلة بين الايجاز والاطناب بهذا الاطلاق فى غير محلها ، لأنها تلغى فى الموازنة عنصرا مهما جـــدا هـــو عنصر « **المقـــام أو المجال أو المناسبة** » ونحن نرى فى هـــذه المسالة ما يراه ابو هـــلال العسكرى من ان الايجـــاز والاطناب يحتاج اليهما فى جميع الكلام .. ولكل واحد منهما موضـع ، فالحاجة الى الايجـــاز فى موضعه كالحاجة الى الاطناب فى مكانه فمن ازال التدبير فى ذلك عن جهته ، واستعمل الاطناب فى موضع الايجاز ، واستعمل الايجاز فى موضع الاطناب اخـــطأ(٣٦) .

ورسائل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يغلب عليها الايجاز بصفة عامة إذا قيست بخـــطبه ، او بتعبير ادق بما يروى من اوصـــاف خطبه فمنها الحديث القصير ، ومنها الخطبة التى تستغرق ساعات طوالا ، وقـــد نقلنا من قبل ما بقى من خطبة بدأ بها النبى ــ عليه السلام ــ بعد العصر واستمرت الى الاصيل أى الى ما قبيل المغرب .

---

(٣٤) انظـر « كتاب الصناعتين » لأبى هـلال العسكرى ١٧٣ .

(٣٥) السـابق ١٩٠ .

(٣٦) السـابق نفس الصفحة .

فالطابع الغالب على الكتب والرسائل هو الايجـــاز ، وتعليل ذلك واضح ، وهو يتلخص فيما يأتى :

١ ــ موضوع الرسالة موضوع محدد يضعه صاحب الرسالة نصب عينيه قبل أن يخط أول حرف فيهـــا ، ولم يعــرف عهــد النبوة ما يمكــن أن نسميه بالرسالة المفتوحة التى ينطلق فيهـــا فكـــر صاحبها بما يشـاء ، فمحدودية الغرض الذى من أجـــله انشئت الرسالة لم يترك مجالا للاطناب والاســـهاب .

٢ ــ طبيعة عهــد النبوة فى ملامحه الدينية والسياسية والاجتماعية والحـــربية ... كان كل شىء يعتمــد على البساطة ... على خطـــوطه الأساسية ... بلا تفريعات ولا تعريجات ، ولم يكن هناك مجتمعـــات يحكمها الاسلام خارج الجزيرة العربية مما يقتضى كتابة العهود والكتب الطوال للقـــادة والولاة(٣٧) .

٣ ــ امكانات الكتابة المحدودة فى عهــد النبوة من قلة عدد الكتاب ــ بالقياس الى عهــد الخلفاء الراشدين ــ وبدائية الأدوات وصعوبة الكتابة على الأدم (الجلد) والرق ، وهو ما يرقق من الجلد ليكتب فيه(٣٨) . ومن ثم كان الايجاز يوفر الوقت والجهد ، او بتعبير آخر كان اعترافا ضمنيا بامكانات العصر .

هذا هو الطابع العام لكتب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الجنوح الى الايجاز الدال على الغرض ، المعبر عن المطلوب دون اخلال أو اساءة الى المعنى ، وهو يتمثل ــ كما يقول العقاد ــ فى اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات(٣٩) .

---

(٣٧) ومن أشهرهما عهـد على بن ابى طالب للاشتر النخعى حين ولاه على مصر ، والعهد يستغرق صفحات كثيرة ، وربما كان اطول العهود فى العصر كله ، وسنعرض لذلك فى الجـزء الثانى من هذا الكتاب ان شـاء الله .

(٣٨) انظـر الكتانى : الترتيبات الادارية ١٢٢/١ .

(٣٩) عبقرية محمد ٧٧ .

ولكن هـــذا الطابع الغالب محكوم بسمة أخرى وهى مراعاته ــ صلى الله عليه وسلم ــ لطبيعة الغرض الذى ينشأ من اجله الاكتاب ، وهو ما عبر عنه الجاحظ بقوله أنه **استعمل البسوط فى موضع البسط ، والقصور فى موضع القصر**[٤٠] .

ومن مراعاته طبيعة الغرض استعماله الاطناب فى كتاب « الموادعة » الذى كتبه بعد هجرته الى المدينة من مكة . كان لابد من تحديد العلاقات بين فئات المجتمع الجـديد ، أو بتعبير آخر كان لابـد من وضع « **دستور عمل ومعايشة** » يحدد الحقوق والواجبات ، ويكون مرجعا للتمييز بين الصـواب والخطأ ، والقرآن لم يكن قد نزل من آياته التشريعية شيء ، او على الأقل كان فى اولى الخطوات التشريعية ، ومثل هـذا « **الدستور** » لا يغنى فيـه الايجـاز فلابد من الاسهاب والتفصيل والتحـديد والتقسيم ، وجاء أطـول عهد كتبه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حياته .

وهناك عهد آخر لم ينل حظا من الاسهاب أو الاطناب وهـو « صـلح الحـديبية » أنه من سطور تعـد على اصابع اليد الواحـدة بعـدد الشروط المحـددة التى تضمنها ... فالمسألة هنا غير المسألة هناك : الأول دستور دائم ، والثانى عهد يرتبط بظرف طارىء كاد يؤدى الى حرب طاحنة تفاداها النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بلباقة وبعـد نظر .

واستطاع أن يحقق بهـذا الصلح ــ على المدى القصير القريب ، وعلى المدى الطويل البعيد كسوبا لنعقيدة والمسلمين ما كان ليحققها الا من كان كمحمد نفاذ بصيره وبعد نظر .

ذاك نظام دستورى لا يغنى فيه الايجاز ، وهذا صـلح يكون الاطناب فيه تزيدا وحشوا غير مطلوب . وشبيه بكتاب الموادعة بين المسلمين واليهود

(٤٠) البيـان والتبيين ٢/٨ .

ما كان كتبا تشريعية ومن اشهرها واطولها كتابه — صلى الله عليه وسلم — فى الصدقات وهو الذى احتفظ به ابو بكر ، وبعث به لأنس بن مالك حين بعثه الى البحرين عاملا عليها .

ونلاحظ أن من وسائل الرسول — صلى الله عليه وسلم — الى التفصيل والاطناب التكرار اللفظى ، وهو كثير جدا فى كتاب الموادعة مع اليهود ، والتكرار هنا ليس فضلة وحشوا ، ولكنه تحديد دقيق جدا « للمراكز القانونية » للفئات المختلفة وتحديد للعلاقات والحقوق والواجبات وهو تحديد لا يقبل التاويل الغالط والتخريج البعيد ، لأن النبى — صلى الله عليه وسلم — ما كان لتخفى عليه ألاعيب اليهود وغشهم وخداعهم .

ويستخدم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لونا آخر من التكرار هو التكرار المعنوى ، وهو يعنى الالحاح على الفكرة الواحدة باسلوب آخر أو اكثر ، وخاصة اذا ما تعلق ذلك بقيمة دينية أو خلقية كقوله فى كتابه الى اهل هجر : **اما بعد فانى أوصيكم بالله وبانفسكم الا تضلوا بعد اذ هديتم ، ولا تغووا بعد اذ رشدتم ... »**[٤١] .

وكما يأتى اطنابه فى موضعه المناسب يأتى كذلك ايجازه وهو القصد فى الأسلوب والتعبير عن المعنى باقل عدد من الألفاظ خلوصا الى ما يرمى اليه من حقائق ، وما ينشده من غايات ، وقد يكون من أهداف ايجازه تنزيه النفس عن اللجج الفارغ ، والهراء الذى لا يليق بالفصحاء ، بله الأنبياء .

---

(٤١) فتوح البلدان ٩٠ .

هذا وقد ذكرنا من قبل انه صلى الله عليه وسلم كان من دابه ان يذكر فى ردوده خلاصة للكتب التى يرد عليها ، وهذا يعتبر ايضا لونا من الوان التكرار المعنوى فى صورة موجزة . وقد ذكرنا من قبل تعليل هذه الظاهرة .

يبعث اليه مسليمة بن حبيب بكتابه الذى يدعى فيه أنه يشركه فى الرسالة ، ويشركه فى الأرض « ولكن قريشا قوم لا يعدلون » ، فيأتيه جواب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى سطر أول سطرين « **اما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** » .

وحقق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بهـذا الايجاز غرضين : أولهما الترفع عن الخوض فى جـدل عقيم مع رجل دعى لا هم له الا الجاه والسلطان وأبهة الدنيا . وثانيهما تقـرير الرد فى صورة حقيقة عامة تعتبر جوهرا من جواهر العقيـدة الاسلامية ، وهى أن « الأرض لله يورثها من يشـاء » .

ومن مراعاته — صلى الله عليه وسلم — لطبيعة الأحوال والمقتضيات وموقف الشخص الذى يراسله . ان بعض كتبه يكون مكثفا فى كلمـات قلائل جدا ، وهى فى ذلك تشبه الى حـد بعيد « البرقيات » فى مجتمعاتنا الحاضرة . فقـد عرفنا أن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه بقى بمكة يكتب لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخبار المشركين ، ولكنه اشتاق أن يقـدم على رسول الله ويترك مكة فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « **ان مقامك بمكة خير** »[٤٢] . وهـذه الرسالة — كما هو ظاهر لم تنهج النهج المتبع فى الرسائل النبوية ، من بدء بالبسملة والحمدلة وذكر المرسل ومن أرسلت اليه الرسالة .. وما أرى ذلك الا للايحـاء بضرورة سرعة التنفيذ من ناحية ، وحرصا على سلامة حامل الرسالة وسلامة العباس اذا ما وقعت هذه الرسالة فى يد قريش ، وفوق كل ذلك حرصا على بقـاء السر سرا واستمرار انتفـاع الدولة بجهود العباس — رضى الله عنه — فى كشف ما تدبره قريش وما تعـد له لضرب المسلمين .

---

(٤٢) حميـد الله : مجموعة الوثائق ٥٢ .

ويرد فى كتبه — صلى الله عليه وسلم — ما يسمى عند البلاغيين بايجاز الحذف ، وهذا النوع من الايجاز يحتاج الى الحس البلاغى المرهف من المنشىء والمتلقى ، ومن نماذجه ما جـاء فى نهاية رسالته لمعـاذ بن جبل يعزيه فى ابنه « **... فاحسن الجزاء ، وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك ، فكان قـد** »[٤٣] .

التقـابل والتضـاد

ويرد فى تضاعيف رسائله — عليه السلام — مقابلات أسلوبية ... ترد بصورة طبيعية دون تكلف أو تصيد ، والهدف من ذلك هو بيان الفرق الشاسع بين الطرفين ، حتى يزدادا وضوحا وبيانا . ويكثر ذلك فى كتب الدعـوة بصفة خاصة ، وفى مجـالات الترغيب والترهيب بصفة اخص . وترتبط المقابلات فى هذه الكتب بالطلب وجوابه أو الطلب وبيان نتيجته ، وفى ذلك استمالة شعورية ، كما انه محـاولة لاقتنـاع المرسل اليه بقبول الدعوة . يقول عليه السلام فى كتابه لهرقل « **... اسلم ، تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الأريسيين ..** » .

وفى رواية أخرى لكتاب المقوقس « **وقد دعوتك الى الاقرار بوحدانيته ، فان فعلت سعدت ، وان أبيت شقيت** »[٤٤] .

هـذا وقد ترد فى أسلوبه — عليه السلام — ألوان اخـرى من البديع كالجنـاس والازدواج ، ولكنها كمـا قلت تاتى عفـو الخاطر بعيـدة عن التكلف والتصيد .

---

(٤٣) اى فكان قد نزل بك الموت لأنه مدركك لا محـالة .

(٤٤) صبح الأعشى ٣٧٨/٦ .

السهولة والوضوح

يقول الامام عبد القاهر الجرجانى : والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه الى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر فكرك فى متصرفه(٤٥) ، ويشيك طريقك الى المعنى(٤٦) ، ويوعر مذهبك نحوه ، بل ربما قسم فكرك ، وشعب ظنك ؛ حتى لا تدرى من اين تتوصل ، وكيف تطلب(٤٧) .

فالتعقيد له سوأتان ظاهرتان : الأولى وضع العقبات والعراقيل امام القارىء أو السامع تحول بينه وبين الوصول الى المعنى وادراك المضمون . والثانية تشعيب الفكر وتشتيته واهدار طاقته فى التخمينات والظنون والتقديرات .

لذلك تجنب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الغريب الحوشى من الكلام . والكلمات الحوشية أو المماتة هى الركيزة الأولى من ركائز التعقيد ، وهى بدلك تغلق المعنى على منشئه فكانه قد كتب أو قال لنفسه لا لكى يقراه أو يسمعه الآخرون . وسمة السهولة والوضوح ان احتاجها الأديب او الشاعر فالرسول اليها أحوج ؛ حتى يستطيع أن يلج نفوس الآخرين ويصل الى قلوبهم فيؤمنوا به .

وكان العقاد على حق حين وصف أسلوب النبى — صلى الله عليه وسلم — بأنه اسلوب عصرى يصلح أن يقتدى به المعاصرون فى زماننا هذا وفى كل زمان ، لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة هو اسلوب عصرى فى جميع العصور(٤٨) .

---

(٤٥) عثره واعثره جعله يعثر .
(٤٦) يشيك طريقك : يجعله مليئا بالشوك .
(٤٧) عبد القاهر الجرجانى اسرار البلاغة ١٢٥ .
(٤٨) عبقرية محمد ٧٦ .

ولكن قد يقال فما بال ما نجده من غريب حوشى فى بعض كتبه ، ككتابه الى أهل حضرموت(٤٩) وفيه يقول :

« الى الأقيال العباهلة(٥٠) ، والأرواع المشابيب(٥١) ، فى التيعة(٥٢) شاة ، لا مقورة الألياط(٥٣) ولا ضناك(٥٤) ، وانطوا الثبجة(٥٥) ، وفى السيوب(٥٦) الخمس ، ومن زنى مم بكر(٥٧) فاصقعوه(٥٨) مائة واستوفضوه(٥٩) عاما ، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم(٦٠) ، ولا توصيم(٦١) فى الدين ، ولا غمة فى فرائض الله تعالى(٦٢) ، وكل مسكر حرام . ووائل ابن حجر يترفل(٦٣) على الأقيال » .

ولكن مثل هذا الأسلوب لا يمثل أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم — اى أسلوبه العام الذى يتحدث به فى خطبه ويسجله فى كتبه ، ومن ثم لا يجوز لنا أن نعمم الحكم فنجعل مثل ذلك سمة من سماته المطردة ، ولكن الأمر أنه — عليه الصلاة والسلام — علم السنة العرب ،

---

(٤٩) الشفا ٥٩/١ .

(٥٠) الأقيال : جمع قيل وهو الملك او الوزير الحميرى . العباهلة : الثابتون . جمع عبهل .

(٥١) الأرواع : جمع أروع وهو الرائع الذى يعجب الآخرين .
والمشابيب : السادة : جمع مشبوب .

(٥٢) التيعة : ادنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان كالأربعين من الغنم .

(٥٣) مقورة الألياط : مرخية الجلد أى مزيلة .

(٥٤) ضناك : ضخمة سمينة .

(٥٥) اعطوا الوسط من المال دون افراط أو تفريط .

(٥٦) السيوف : جمع سيب : وهو الركاز .

(٥٧) من الأبكار

(٥٨) اضربوه .

(٥٩) انفوه وغربوه .

(٦٠) الأضاميم : الحجارة اى ارجموه بالحجارة واسيلوا دمه . ..

(٦١) فتور وتقصير .

(٦٢) الغمة : الستر . أى اجهروا بأوامر الله وفرائضه .

(٦٣) يراس ويتأمر .

يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من اصحابه يسئلونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه . وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى المشغار الهمدانى وطهفة النهدى وقطن بن حارثة العليمى والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من اقيال حضرموت وملوك اليمن(٦٤) .

فنحن ولا شك أمام غريب حوشى لا يفهم أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — منه الا أقل القليل ، ولكنه ليس سمة أسلوبية مطردة ، انما هو سمة « اسلوب خاص » لقوم لا يفهمون غيره ، وذلك ملمح من ملامح البلاغة التى حدها هو « **مراعاة مقتضى الحال** » ، ولو خاطبهم النبى بغير لسانهم لكان فى ذلك مجافاة للبلاغة لأن الحصيلة التى يخرجون بها ستكون ضئيلة ، بل قد تكون معدومة . وذلك يناقض « السمه الغالبة على أسلوب النبى . . . وهى سمة **الابلاغ** »(٦٥) او « **البلاغ المبين** » وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : اقرب موصل بين نقطتين . فليس اقرب من أسلوب النبى عليه السلام — فى ابلاغ الغرض منه .

لا كلفة اذن — ولا غموض ولا اغراب ، وقلة الغريب — بل ندرته — فى كلام النبى — صلى الله عليه وسلم — اجدر الأمور بالملاحظة فى اقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية . .

فمحمد العربى القرشى الناشىء فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة ، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه الى مراجعة . . . وسر ذلك أنه يريد

(٦٤) الشفا ١/٥٨ .
(٦٥) عبقرية محمد ٦٩ .

أن يبلغ أو يريد ان يصل الى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب او المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه السلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه ، وانه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »[٦٦] .

واذا كان — عليه السلام — قد راعى « مقتضى الحال » فى ايثار لهجة القوم على لهجة قريش ، فخاطبهم بلسانهم ، فانه راعى مقتضى الحال فى الأمثلة المضروبة ، ففى كتابه للنجاشى يسوق راى الاسلام فى طبيعة السيد المسيح — عليه السلام — وكيف يبجله المسلمون ويجلونه ، فالرجل نصرانى والذى يشده الى شخصية المرسل ويقربه نفسيا منه ، اشعاره بانه — ان أسلم — فقد ذهب الى دين ان يكن أوفى واشمل فانه لم يكفر بدينه ورسوله لأن اجلال المسيح والايمان به مبدأ من مبادىء الدين الاسلامى ، وما آمن بمحمد من كفر بالمسيح عليهما السلام . وحينما يكتب الى خيبر — وهم يهود ضالعون فى اليهودية — يكون الحديث عن موسى والايمان به هو المثل الفرد الصالح لهذا المقام . وتلك هى البلاغة الحقيقية التى سارت مثلا يحتذى ، وقدوة لمن يطلبون النماذج العليا فى الأساليب العربية .

التدفق والترسل

ويقصد بهذه السمة أن يجرى الكلام فى يسر ، ويصدر عن طبع لغوى سليم بعيدا عن التكلف والتصيد بحيث يكون تزيين الأسلوب بضروب الصنعة أمرا مقصودا لذاته وخصوصاً السجع . وقد انكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مثل هذا الأسلوب المثقل بالسجع ، فيروى ان رجلا جاءه وقال « يا رسول الله ، أرأيت من لا شرب ولا اكل ، ولا صاح

---

(٦٦) عبقرية محمد ٧٣ .

فاستهل ، اليس مثل ذلك بطل » فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مستنكرا « **اسجع كسجع الجاهلية** » ؟

وامام هـذا الحـديث ذهب النقاد القـدامى مذاهب شتى : فمنهم من قال « لـو أن هـذا المتكلم لم يرد الا الاقامة لهـذا الوزن لمـا كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون اراد ابطالا لحق فتشادق فى كلامه » وهـذا التخريج يعنى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — استنكر « موضوعا » أو مسلكا معينا ارتبط به هـذا الكلام .

ومن قائل وجـدنا الشعر من القصيد والرجز قـد سمعه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واستحسنه وامر به شعراءه ، وعامة اصـحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قـد قالوا شعرا قليلا كان ذلك ام كثيرا ، وسمعوا واستنشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هـو أكثر ويحرم ما هـو أقل ؟

وكان أحسن ما بدا هـو قول من ذهب الى ان السجع يكون جيدا مقبولا « اذا لم يطـل ، ولم تكن قوافيـه مطلوبة مجتلبـة ، أو ملتمسة متكلفـة »[٦٧] .

ويقول الجاحظ « وكان الذى كره الأسجاع بعينها — وان كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كان اكثر أهـل الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحـد منهم رئيا من الجن ، كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ... فوقـع النهى (عـن السجع) لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم ، فلمـا زالت العـلة زال التحريم »[٦٨] .

---

(٦٧) البيان والتبيين ١٥٨/١ .

(٦٨) السـابق ١٥٩/١ .

ونحن نرى أن استنكار النبى للسجع فى المثال السابق وما شابهه يرجع الى سببين :

الأول : سبب عقدى : وهو ارتباط هذا السجع ذى الجمل القصيرة السريعة الحادة بالكهانة الجاهلية التى ترتكز على عقيدة فاسدة خاسرة .

الثانى : سبب ادبى ذوقى : فقد كان النبى — عليه السلام — نموذجا للفصيح البليغ الذى يتسنم قمة البيان الانسانى . ومثل هذا السجع — على ما فيه من تكلف — يتمتع بتفاهة المضمون ، وغثاثة المعنى .

فالسجع ليس مرفوضا لذاته ، انما هو فى ذلك كالشعر ، حسنه حسن ، وقبيحة قبيح ، كما يقول حجة الاسلام ابو حامد الغزالى[69] . وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب اسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحدا[70] .

* * *

والترسل — كما قلنا من قبل — سمة غالبة على بيان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خطبا وأحاديث وكتبا ، وما افتعل قط ولا تكلف ، ولكن كلامه لم يخل من سجعات قليلة ترد عفو الخاطر ، وتوضع فى سياق كلامه ، فيحس القارىء كأنها لم تخلق الا لهذا السياق ، وان السياق بغيرها لا يكون بيانا بليغا . ومن نماذجه ما جاء فى كتابه الى المنذر بن ساوى ملك البحرين « **فان من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم ...** » .

---

(٦٩) احياء علوم الدين ١٥٦٩/٩ .

(٧٠) البيان والتبيين ١٥٩/١ .

وفى كتابه الى ابنى الجلندى ملكى عمان[71] يقول « ... **وان أبيتما أن تقرا بالاســلام ، فان ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحل بساحتكما ، وتظهر نبــوتى على ملككما »** .

فسجعه العفوى هــذا يأتى فى كلامه حليــة لهــا قيمتها ، « ومذهبه فى هــذه الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل : فحولة فى القول ، وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التى يليق بالرجل أن يتحلى بها ولا مزيد »[72] .

ويقال ان أبا سفيان كتب للنبى عليه السلام كتابا يهــدده والمسلمين فيه .. يقول فى آخره « نريد منك نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك ، والا أبشر بخراب الديار ، وقلع الآثار .... » .

فأجابه النبى بكتاب جاء فيه « وصل كتاب أهــل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم ، فوالله مالكم عندى جواب الا اطراف الرماح ، واشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام ، وبفلق الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار .. » .

ويعلق العقاد على هــذه الرواية التى أوردها فى كتابه « عبقرية محمد » بقوله « فهــذا السجع فى هــذا المقام اصلح لخطاب الجاهليين ، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه المناجزة والتخويف ومن هنا أقر النبى ــ عليه السلام ــ نص الحلف الذى كان بين جــده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موثقا تعقد به المواثيق ، وتؤكد به الحرمات ... »[73] .

---

(71) صبح الأعشى ٦/٣٨٠ .

(72) عبقرية محمد ٧٤ .

(73) عبقرية محمد ٧٥ .

وحكم العقاد هــذا فيه نظر :

١ ــ فما كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليجارى الجاهليين فى اسلوبهم عن قصد ، ولا يمكن أن توحى هــذه المجاراة « بالتوثيق والتمكين والمناجزة والتخويف » بل ربما كانت « المغايرة » الأسلوبية ادل على ذلك .

٢ ــ والكتاب ابعــد ما يكون عن طبيعة كتب النبى ــ عليه السلام ــ أسلوبا ومضمونا ، فالسجع فيه ــ كما هــو ظاهر ــ متصود لذاته ، وهذا ما ترفع عنه النبى ، وأنكره على رجل نطق بمثل هــذا فى القصة التى رواها الجاحظ . وما كان النبى عليه السلام ليهــدد **بخراب الديار ، وقلع الآثار ،** وهو الذى كان ينصح الصحابة اذا ما توجهوا لحرب الا يمثلوا ، أو يقطعوا نخلا أو يقتلوا طفلا او امرأة . . . الخ لأن الحرب فى الاسلام انما شرعت دفاعا عن النفس والعقيدة . . اى أنها حرب هــدفها التطهير والتعمير ، وليست حربا للتخريب والتدمير .

٣ ــ وقــد أنهى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ هــذا الكتــاب المنسوب اليه ببيتين من الشعر لا يستقيم وزنهما ، زيادة على ما فيهما من ركه وضعف فى المعنى وهما :

الا بلـــغ عنى قريشـــا   من لســان كالحسام

الا هلموا كى تلاقوا ما لاقيتم   من الصمصام فى بدن وهام

ولم يعرف عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه تمثل بشعر فى كتبه ، كما أن تشبيهه لسانه « بالحسام » تشبيه غريب لا يليق بمقــام النبوة ، وان ناسب شاعرا فى مقام الهجاء والحماسة .

٤ ــ واقرار النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ للحلف الذى كان بين جــده وخزاعة ــ على ما به من سجع ــ لا يدل على اقراره لمثل هــذا الأسلوب ، انما كان اقراره لمضمون الحلف ذاته ، وربما كان هــذا الحلف

هو الدافع الأساسى الذى دفع خزاعة الى الدخول فى حلف النبى — صلى الله عليه وسلم — بعد عقد صلح الحديبية بين النبى وقريش .

٥ — والكتب التى بين ايدينا لأبى سفيان — وبعضها موجه للنبى — صلى الله عليه وسلم — لم تستخدم هذا الأسلوب المسجوع ، ومنها الكتاب الذى يهدد فيه النبى والمسلمين ايام الخندق « بالاستئصال » . وليس هناك داعية تدعوه الى استخدام هذا الأسلوب المسجوع فى هذا الكتاب بصفة خاصة .

٦ — والدكتور حميد الله شكك فى كتاب أبى سفيان ورد النبى عليه نصدرهما بالتعليق الآتى :

« ... ولم ار أثرا لهذا المكتوب فى الكتب المتداولة ولا يكاد يصح ، نظرا الى أسلوبه » . وقد نقله من مخطوطة أيا صوفيا لكتاب السيرة لمحمد ابن جرير الطبرى . وأغلب الظن أن العقاد نقل الكتابين عن حميد الله من كتابه مجموعة الوثائق(٧٤) .

الشواهد القرآنية
والأسلوب النبوى

وكان من الطبيعى أن يطعم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتبه ورسائله بآيات من القرآن الكريم : ولا عجب فى ذلك فقد تربى على مائدة القرآن ، وكان بيانه الساحر أهم مصادر فصاحته . وكان للنبى — عليه السلام — منهج دقيق فى سوق الآيات فى كتبه يعتمد على ركيزتين :

الأولى : طبيعة من يبعث اليه الرسالة ومركزه الدينى والاجتماعى .
والثانية : طبيعة السياق والمضمون الذى تعبر عنه الرسالة .

(٧٤) انظر حميد الله ٥٣ .

فهو فى كتبه الى من كان على دين كتابى يسوق آية تخاطب اهل الكتاب « **يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهدوا بانا مسلمون** »(٧٥) .

فهو يورد الآية بنصها فى كتابه لقيصر الروم (هرقل) وفى كتابه الى المقوقس عظيم القبط فى مصر : فالنصرانية دين الرجلين ، ومن ثم كانت فى موضعها الذى لا يغنى فيه غيرها . كما أنها لا يستشهد بها فى كتاب موجه لمشرك يعبد غير الله .

وفى كتابه الى النجاشى ملك الحبشة وقد كان نصرانيا ورجل صدق ودين يضمن كتابه ما قاله القرآن فى طبيعة عيسى فهو « **روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة** » وهو اقتباس واضح من قوله تعالى « **اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ....** »(٧٦) .

ويقول عنه النبى عليه السلام فى رسالته « **فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ..** » وهو اشارة الى قوله تعالى « **ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ..** »(٧٧) .

ثم يكون الشأو الأعلى فى البلاغة حين يراعى النبى — صلى الله عليه وسلم — ما فى النصرانية من روح المحبة والتسامح والسلام فيضمن كتابه من أسماء الله الحسنى ما يتفق مع طبيعة هذا الدين « **فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، واشهد أن عيسى ..** »

(٧٥) آل عمران ٦٤ .
(٧٦) آل عمران ٤٥ .
(٧٧) التحريم ١٢ .

مع ان نص الآية القرآنية « **هو الله الذى لا اله الا هو الملك القــدوس السلام المؤمــن المهيمــن العزيز الجبــار المتكبر . ســبحان الله عمــا يشركون** » ولكنه ــ عليه السلام ــ عرض فى كتابه من اسماء الله الحسنى ما يكون النجاشى أكثر اهتزازا لــه وأشد خشوعا أمامه من غيره ، وليبين ما بين الديانتين من تلاق صادق فى العقيدة الألوهية . وجاء الحــديث من قبل عن طبيعة السيد المسيح وأمه مريم .. حــديث تعظيم وتجلة وتوقير ردا على ما زوره بعث قريش لمحاولة الايقاع بين النجاشى وبين مهاجرة المسلمين الى الحبشــة(٧٨) .

أما اذا كان من ترسل اليه الرسالة كافرا بالله مثل كسرى ملك الفرس فاسلوب « **الرسول النذير** » هنا هــو انسب الأساليب ، فيبين عليه السلام بعــد ان يدعــوه للاسلام أنه بعث للنــاس كافــة لينذر من كان حيــا « **ويحــق القول على الكافرين** »(٧٩) .

* * *

هــذا عن الركيزة الأولى للاستشهاد القرآنى فى كتب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهى مراعاة طبيعة المرسل اليه دينا ومركزا . أما الركيزة الثانية فهى طبيعة السياق والمضمون والتناسب المعنوى بين الآية المسوقة والمعانى التى تحملها الرسالة أو العهد . وكان عهده لعمرو بن حزم الأنصارى حين ولاه اليمن من أعمر كتبه بالآيات القرآنية . وكل آية من هــذه الآيات ترتبط ارتباطا معنويا وثيقا بتوجيه أو مبدأ أو قاعــدة او أمر أو تنظيم مما ساقه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى كتابه . فهو

---

(٧٨) ويدور هــذا المدار ايضا ما استشهد به النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من قرآن فى كتابه ليهود خيبر وحديثه عن موسى والأسباط وتبشير كتبهم بظهوره وظهــور الاسلام ، وقــد اشرنا الى ذلك من قبل [انظر حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية : ٦٨] .

(٧٩) ســورة يس ٧٠ .

يجعل أساس العهد الطويل الوفاء بالعهود والعقود والوعود ، فيصدره بقوله تعالى « **يايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** .. »(٨٠) .

وفى سياق حديثه عما يجب أن يتحلى به الحاكم من صلاح وتقوى يستشهد بقوله تعالى « **ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** »(٨١) .
ويستشهد بقوله تعالى « **الا لعنة الله على الظالمين** »(٨٢) فى سياق حديثه عن واجبات الحاكم ، فى ضرب الظلم والظالمين ، والانتصار للمظلومين والمستضعفين .. **وطريقة استشهاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ياتى على ثلاثة وجوه :**

١ – فهو قد يستشهد بالآية كاملة . أو بجزء من آية دون تغيير كاستشهاده بصدر الآية الأولى من سورة المائدة .

٢ – وقد يضمن كلامه الآية او جزءا منها مع تغيير طفيف فتنساب الآية فى سياق الكلام كماء الذهب وكانها بنت لحظتها ، وكانها لم تنزل الا لهذا الكتاب .

٣ – وقد يكون الأمر كلمات قرآنية تنتثر هنا وهناك فى تضاعيف كتبه ، وهى أكثر من أن تحصى . مثل : الهدى والحق – تولى – سبيل الله ... الخ .

* * *

وقد استخلص الأستاذ انيس المقدسى من رسائل النبى – عليه السلام – سمة أسلوبية تلفت النظر وهى استخدام الفاظ وعبارات خاصة **قلما** نعثر عليها فى سوى هذه الكتب كقوله : ما كان أحد مكانه – مابل

(٨٠) سورة المائدة ١ .
(٨١) سورة النحل ١٢٨ .
(٨٢) سورة هود ١٨ .

بحر صوفه[٨٣] . . . لم آثم ما لكم (أى لم أجازكم على ما لكم من أعمال تستوجب الجزاء) ــ لم أضـــع فيكم منذ سالمت (اى لم اقم بأمر فيه نقض لعهد أو اساءة لكم) . ــ ان لهم سعاية (اى صدقة) وليقم فلان (أى ليتول الأمر أو ليقم بالصلاة فى الناس وجمع الصدقات) . لايحاته فى ذلك أحـــد (أى لا يدعى ان له حقا فيه) . . . وان الله ورسوله جار على ذلك (أى حليف أو مناصر)[٨٤] .

بين التقرير والتصوير

أسلوب الرسول صلى الله عليه يرتبط فى طبيعته وسماته بطبيعـــة الموضوع الذى يتناوله الكتاب بحيث يكون هـــو انسب الأساليب للموضوع الذى يتناوله والأفكار التى يتكون منها هذا الموضوع . ففى الكتب التشريعة والكتب التنظيمية والادارية يقترب أسلوبه من الأسلوب العـــلمى ، بل يكاد يكون علميا بحتا فى كتب « الغنائم والعطـــايا » حتى ليكون الكتـــاب مجرد « قائمة » لا تحوى الا اسماء وأرقاما ككتابه فى مقاسم اموال خيبر الذى جاء فيه : « **هـــذا ما اعطى محمد رسول الله : لابى بكر بن ابى قحافة مائة وسق ، ولعقيل بن ابى طالب مائة وأربعـــين ، ولبنى جعفر بن أبى طالب خمسين وسقا ، ولربيعة بن الحارث مائة وسق . . .** »[٨٥] .

ويمضى الكتاب على هـــذا النهج الى نهايته ، بهـــذا الأسلوب المباشر المحـــدد الذى لا يزيد على ذكر « اسماء » و « استحقاقات » ولم يتبع فيـــه الرسول عليه السلام النهج المطرد فى الكتب والرسائل فى البدء والختـــام

(٨٣) هـذه العبارة بالذات (ما بل بحر صوفه) وردت فى احـــلاف الجاهلية كحلف الفضول وحلف عبد المطلب وآله مع خزاعة والحلفان اقرهما النبى صلى الله عليه وسلم [انظر جمهرة رسائل العرب ٢٥/١] .

(٨٤) انيس المقـدسى : تطـور الأساليب النثرية فى الأدب العربى ٣٧ .

(٨٥) مجموعة الوثائق ٧٠ .

وغير ذلك لأنه غير مطلوب فى مقام لا يحتاج الا الى التحـديد الجازم حفظا لما نص عليه من حقوق . فالأسلوب التقريرى المباشر ليس هـو افضل الأساليب فى هـذا المقام فحسب ، بل هـو الأسلوب الفذ المطلوب بحيث لا يغنى عنه غيره من الأساليب .

* * *

هـذا الأسلوب المباشر كان همـه الأكبر « العنصر الفـكرى » اى المضمون المعنوى انطلاقا من « مهمة التبليغ » لذلك قـل فيه « العنصر التصويرى » وخصوصا كتب الاقطاع والغنائم ، والكتب التنظيمية والادارية .

ولكن هـذه الكتب لم تخل تماما من لمحات تصويرية عفوية بارعـة يظهر عليها بصمات البيئة العربية آنذاك . وهى فى مجموعها تتسم بالوضوح والبساطة والبعـد عن التعقيد وقرب المـاخذ حتى ليخيل للقارىء انهـا اساليب حقيقية لا مجازية . ومن هـذه الصور :

« **ما بل بحر صوفة** »(٨٦) وهـو كناية عن الديمومة وعـدم الانقطاع . ومنها : **واعلم ان دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر** . فالخف مجـاز مرسل علاقته الجزئية والحافر مجاز مرسل علاقته الجزئية كذلك ويعنى به الخيل . وفى العبارة كناية عن سعة انتشار الدعـوة .

ومن كتابه لابنى الجلندى « **وخيلى تحل بساحتكما** » وهى كناية عن القـدرة والنصر والسيطرة . ومن الأساليب الاستعارية الجميلة قـوله متحـدثا عن اكيدر دومة فى كتابه اليه « ... **اجاب الى الاسـلام ، وخـلع الانداد والاصنام** » فقـد جعل الأنداد والأصنام قيدا يثقل صاحبه ، وحذف المشبه به ورمز اليه بلازمة من لوازمه وهى الخلع .

(٨٦) صوف البحر شىء يشبه صوف الحيوان والمفرد صوفه ولعله زبد البحر . او هـو الأسـفنج .

ومن تشبيهاته فى عهد الموادعة بينه وبين اليهود « **وان الجار كالنفس** » .

ولكن اكثر كتبه توهجا وأعمرها تصويرا كتابه الى معاذ بن جبل فى تعزيته فى ابنه ، ولا عجب فى ذلك فهى رسالة اخوانية خاصة لا تتعلق بأى أمر من امور الدولة أو سياستها العامة . ومن الصور الجميلة فيها تشبيه الأنفس والأهل والموالى بالعطايا ومن الأساليب الاستعارية « **يحبط جزعك صبرك** »(٨٧) . والسجع فى الرسالة جاء بلا تصنع أو تكلف (.. الأجر .. الصبر .. الشكر) وكان الازدواج فى العبارات كالسجع لا تكلف فيه ولا تصيد . وفى الرسائل مقابلات رائعة كان لها اثر كبير فى ابراز القيم الاسلامية والنفسية التى حرص عليها الرسول — صلى الله عليه وسلم .

* * *

وكانت رسائل الآخرين فى هذا العصر يقل كذلك فيها التصوير .. وان وجد فهو قريب المأخذ غير بعيد وغير شارد كما نرى فى كتاب « الوليد بن الوليد » — وكان قد أسلم — الى أخيه خالد يدعوه فيه الى الاسلام(٨٨) .

وكما نرى فى كتاب خالد بن الوليد للرسول — صلى الله عليه وسلم — ينبئه فيه باسلام بنى الحارث بن كعب . والكتاب يتدفق بأدب الحديث وتوقير مقام النبوة : فهو يذكر اسم النبى قبل اسمه ، وهو يصفه بالنبوة والرسالة فى مطلع الرسالة ، ويكرر ذكر النبى — صلى الله عليه وسلم — تلذذا بهذا الذكر ، وهو دائما مقرون بالصلاة والتسليم عليه . وهو يتحدث عنه غالبا بضمير الغائب تهيبا وتوقيرا لمقامه . وفى اعطاف الرسالة

---

(٨٧) أى يأخذك الحزن والفزع ولا تصبر ومن ثم لا تنال ثواب الصابرين .

(٨٨) انظر حميد الله : مجموعة الوثائق ٦٤ .

تسرى عاطفة حب متدفق صادق من سيف الله المسلول للنبى الكريم — عليه السلام — وتكاد الرسالة تخلو من الصور عدا تشبيه واحد فى (معالم الاسلام) وهى صورة أقرب ما تكون للأسلوب الحقيقى .

بين الشك واليقين

ومن فحص الرسائل التى تنسب للنبى — صلى الله عليه وسلم — نستطيع بالاحتكام الى طوابعها الفكرية وملامحها الأسلوبية أن نحكم بصحتها أو وضعها . ولكن قد يكون هناك من الأدلة المادية ما يجعلنا نرفض الرسالة ابتداء دون فحص مضمونها وسماتها ومثال ذلك كتاب ينسب الى النبى — صلى الله عليه وسلم — يسقط الجزية عن أهل خيبر . وقد حمل الكتاب فى سنة ٤٤٧ هـ الى رئيس الرؤساء ابى القاسم على بن الحسن وزير القائم فعرضه على الخطيب البغدادى فقال : مزور ، لان فيه شهادة سعد بن معاذ ، وقد مات قبل فتح خيبر بسنتين ، وفيه شهادة معاوية وانما أسلم عام فتح مكة اى بعد خيبر بسنة .

ولكن ابن القيم يتخذ من مضمون الكتاب سببا لرفض نسبته الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اذ لم تكن الجزية وقت فتح خيبر ، ولم تنزل آية الجزية الا بعد سنتين من غزوة خيبر ، ولم تكن على اهل خيبر كلف ولا سخرة فى زمن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى توضع عنهم[٨٩] .

* * *

وقد عرضنا من قبل للمعيارين الذين وضعهما الدكتور حميد الله للحكم بصحة الرسائل أو وضعها ، وقلنا ان كل رسالة يجب أن ينظر اليها

(٨٩) حميد الله : السابق ٩٥ — ٩٦ .

فى ذاتها نظرة شمولية فاحصة ، ولا يكفى ان نقول أن الرسالة موضوعة لأنها تضمنت حقوقا دون أن تنص على واجبات تقابلها ، وقلنا — بناء على هذا الفحص — ان رسالة أبى سفيان التى زعم انه بعث بها الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكذلك رد النبى عليها ... قلنا انهما موضوعتان لأسباب أبديناها منها ما يتعلق بالمضمون ومنها ما يتعلق بالأسلوب ، كما وقفنا وقفة متانية أمام رسلة النبى — صلى الله عليه وسلم — الى معاذ بن جبل يعزيه فى ابن فقده ، ورددنا على من شكك فى نسبة هذه الرسالة الى النبى — عليه السلام —[٩٠] .

كما يوجد بعض الكتب التى لا يوجد ادنى شبهه فى وضعها ومنها كتابان نقلهما الدكتور حميد الله من مجموعة تاليفات الآباء الشرقيين ، وبصرف النظر عن طولهما وما نصا عليه من حقوق مسرفة لنصارى نجران ، يستطيع القارىء العادى أن يدرك بسهولة ان هذين « العهدين » وضعا فى العصر الحديث او أحد العصرين التركى والملوكى ، وأنهما أبعد ما يكونان عن اسلوب النبى عيله السلام . واعتقد أن واضعه احد رجال الدين النصارى . ونكتفى بالنظر الى العهد الأول[٩١] من العهدين فنرى أن القارىء لا يتردد فى الحكم بتزييفه . ومن ادلة ذلك :

١ — الطول المفرط فقد بلغ ثلاثة اضعاف عهد الموادعة بين النبى والمسلمين واليهود .

٢ — عدم اتباع نهج الرسول عيه السلام فى عهوده وكتبه فلم يكتب فى ذيل العهد اسماء الكاتب والشهود .

٣ — ينص صدر الكتاب بانه أمان من الله ورسوله « **للذين اوتوا الكتاب من النصارى ، من كان منهم على دين نجران ، أو على شىء من نحل النصرانية .. »** .

---

(٩٠) هو غانم جواد فى كتابه « الرسائل الفنية » ٧٥ — ٧٩ .
(٩١) حميد الله : ١٤٦ .

مع أن النبى — عليه السلام — كان يتعامل مع النصارى على اساس انهم أصحاب ملةواحـــدة ، اما مسألة « النحل » والمذاهب هـــذه فكانت فى عصـــور متأخرة .

٤ — يصور العهد النصارى بصورة « حماة الاسلام » فيأتى فى العهد — على لسان النبى — **واراد النصارى من تقـــوية امرى . ونصبوا لمـــن كرهـــه ، واراد تكذيبه وتغييره ...** » .

بل يجعل منهم حماة الحدود الاسلامية ضـــد المغيرين وذلك بدفاعهم « **وذبهم عن غزاة الثغور فى نواحيهم ..** » .

٥ — وكثير جـــدا من العبارات والكلمات لا يمكن بأية حال ان يتفق مع اسلوب عصره كقـــوله « **.. فاحضرت رؤســـاء المسلمين ، وافاضـــل اصحابى ، واكدت على نفسى الذى ارادوا ، وكتبت لهم كتابا ، يحفظ عنـــد أعقـــاب المسلمين ، من كان منهم سلطانا او غير سلطان ، فان على السلطان انقاذ ما امرت به ...** » فاستعمال «**الرؤساء**» و « **السلطان** » يؤكدان ان العهـــد ان لم يكتب فى العصر الحـــديث ففى أحـــد العصرين : التركى والملوكى .

ومثل هـــذا قوله « **وعلى الســـوقة ان لا يؤذوهم ، وأن يكملـــوا لهم العهد ..** » . فالنبى — عليه السلام — لم يقسم المسلمين الى « علية » و « سوقة » ، وكيف يفعل وهـــو القائل « **المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم** » .

وعبارة العهد السابقة تعكس ما كان يتعرض له النصارى فى العصور المتأخرة على أيدى السوقة والحكام الظالمين ممن فقـــدوا روح الاسلام فى التسامح وانصاف اهـــل الذمة ممـــا أشار الجبرتى الى كثير منه فى تاريخه .

* * *

ويشكك الأستاذ أنيس المقدسي فى كتب النبى الى الملوك سنة ٦ هـ بمقولة أن النبى — عليه السلام — « لم يكن قد بلغ فى تلك السنة من القوة الحربية ما يرغم قبائل العرب القريبة على الخضوع التام ، فكيف يعقل أن يهتم باخضاع كبار الملوك يومئذ وهو لا حول حربى له ولا طول . ففى مثل هذه الكتب الملوكية متسع للشك لمن أراده . والذى يراجع القصة التى حيكت حول كتاب الرسول الى ملك الروم يرجح انها من قبيل الأخبار القصصية لا الحقائق التاريخية[٩٢] .

وهو شك فى غير موضعه ، وليس له ما يبرره :

١ — فالهدف من هذه الكتب لم يكن « اخضاع كبار الملوك » كما ذهب الأستاذ المقدسى ، بل كان دعوة هؤلاء الى هدى الاسلام ، وليس فى هذه الكتب ما يوحى بطلب النبى خضوعا واستسلاما وتبعية .

٢ — والقول بأن النبى — عليه السلام — لم يكن له فى تلك السنة حول وطول قول غير صحيح ، ففى هذا العام هابته قريش ، والا لقاتلته فى الحديبية . بل انه والمسلمين — مع انهم لم يكن معهم من السلاح الا السيوف فى القرب — تأهبوا لقتال قريش اعتقادا من المسلمين أن قريشا قتلت عثمان بن عفان — رضى الله عنه — رسول رسول الله الى قريش .

٣ — والمسلمون خلال عامين فقط : الخامس والسادس الهجريين استطاعوا ان يقوموا بعشرين غزوة وسرية .

٤ — على ان النبى — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين معه كانوا يعوضون بقوة الايمان ، وشجاعة القلب ، والتسليم بقاعدة « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » ما يعوضهم عن قوة السلاح .

---

(٩٢) تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى ٣٤ .

٥ — وهـذه الكتب بعث بها النبى — صلى الله عليه وسلم — بعـد ان « عزل » جبهة قريش ، وجنى بهـذا العهد كسوبا سياسية كبرى .

٦ — واخيرا : من يقرا هـذه الكتب يرى أنها ذات سمات وملامح لا تختلف عن صفات الأسلوب النبوى فى كتبه الأخرى .

* * *

والخلاصة ان اغلب الكتب التى نقلت الينا عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صحيحة ، وقليل منها يسهل اكتشاف التزوير فيه وقـد قـدمنا نماذج لمثل هـذه الكتب .

هـذا وآمل أن يتسع الوقت والعمر لتقـديم الجزء الثانى من الكتاب الذى سيكون فى أدب الرسائل فى عهد الخلافة الراشدة . كما أعلنت فى مقدمة الكتـاب .

والحمد لله رب العالمين . .

مختارات من الكتب والرسائل

(١)

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
بين المهاجرين والأنصار واليهود بالمدينة[١]

« بسم الله الرحمن الرحيم : هــذا كتــاب من محمــد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهــد معهم ، أنهم أمة واحــدة من دون الناس ، والمهاجرون من قريش على رباعتهم[٢] يتعــاقلون[٣] بينهم ، وهم يفــدون عانيهم[٤] بالمعروف والقسط[٥] بين المؤمنين • وبنو عــوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفــدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو ساعدة على رباعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنــو الحارث على رباعتهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٨٨/٢ .
وهو أول كتاب كتبه النبى — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة بعــد نزوله بها ، وهــو كما قلنا يمثل « دستور الحياة » فى المجتمع أول الدولة الجــديدة .

(٢) الربعة والرباعة (بفتح الراء) الشأن والحال . يريد أنهم على أمرهم الذين كانوا عليه من قبل : من أداء العقول والديات وغيرها . والربعة أيضا قسمة البلد فتشتمل على منازلهم ومساكنهم .

(٣) المعاقل : الديات . والتعاقل هــو اعطاء المعاقل أى الديات . ويقصــد يكونون على ما كانوا عليه من أخــذ الديات واعطائها .

(٤) العانى : الأسير . وفى الحــديث الشريف : « أطعموا الجائع وفوا العانى » وهــو مأخوذ من العنو اى الخضوع . والفعل : عنا يعنو .

(٥) القسط : (بالكسر) : العــدل . واقسط : عــدل . ومنه قوله تعالى « ان الله يحب المقسطين » .

يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وأن المؤمنين لا يتركون مُفرحا(٦) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم(٧) ، أو اثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة . يجير عليهم أدناهم(٨) ، وأن المؤمنين بعضهم موالى(٩) بعض دون الناس .

---

(٦) أفرحه الدين : اثقله . والمفرح (بفتح الراء) هو الذى أثقله الدين ولا يستطيع قضاءه .

(٧) الدسعة : الدفعه والعطية ، وكذلك الدسيعة . وابتغى دسيعة ظلم : اى أراد عطاء أو رشوة مقابل أن يظلم الآخرين .

(٨) ادناهم : اقلهم شأنا . ومعنى « يجير عليهم ادناهم » اى اذا اجار واحد من المسلمين — ولو كان قليل الشان — واحدا من الأعداء فعلى بقية المسلمين أن يحترموا اجارته . وفى الحديث الشريف « المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

(٩) الموالى : جمع مولى وهو المؤيد والمناصر . وتاتى بمعنى السيد والعبد .

وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة(١٠) غير مظلومين ، ولا متناصر عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة(١١) ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا(١٢) ، وأن المؤمنين يبيء(١٣) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط(١٤) مؤمنا قتلا عن بينة(١٥) فانه قود(١٦) به الا أن يرضى ولى المقتول(١٧) ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا(١٨) ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فان مرده(١٩) الى الله عز وجل ، والى محمد .

وأن اليهود ينفقون ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، الا

---

(١٠) الأسوة هنا بمعنى المواساة والمعالجة . وواساه : عالجه .
(١١) السلم (بفتح السين وكسرها) الصلح . والكلمة تستعمل مؤنثا ومذكرا أى أن الصلح الذى يوقعه المسلمون يصدق عليهم جميعا ، ولا يجوز لمسلم أن ينفرد بذلك واحد دونهم .
(١٢) أى يجب الا يكون عبء القتال على بعض المسلمين دون بعضهم بل يكون مناوبة بينهم بحيث يسهم فيه الجميع .
(١٣) يبيء : يساوى . وأباء القاتل بالقتيل اذا قتله به .
(١٤) اعتبطه أى قتله دون ذنب جناه .
(١٦) القود : القصاص . أى يقتل به .
(١٧) أى يرضى بالدية أو بالعفو .
(١٨) المحدث : الجانى .
(١٩) مرده : مرجعه .

من ظلم وأثم ، فانه لا يوتغ(٢٠) الا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البر دون الاثم(٢١) ، وأن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد ، وأنه لا ينحجز على ثار جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وأنه لم يأثم أمرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة(٢٢) وأن الجار كالنفس غير مضار ، ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار(٢٣) يخاف فساده ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش

---

(٢٠) يوتغ : يهلك .
(٢١) اى ان البر يجب أن يسود الناس حتى يحول بينهم وبين الاثم والشر .
(٢٢) اى ان عليهم الا ينتهكوا حرمة يثرب .
(٢٣) الاشتجار : الخلاف والنزاع .

ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم[٢٤] يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم ، لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، الا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله » .

(٢٤) دهم : هاجم واقتحم .

(٢)

كتابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المنذر بن ساوى ملك البحرين[٢٥]

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى : سلم أنت[٢٦] ، فانى أحمدُ اليك الله الذى لا اله الا هـو ، أما بعـد : فان من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم ، له ذمة الله وذمة رسوله ، فمن أحب ذلك من المجوس ، فانه آمن" ، ومن أبى فانه عليه الجزية » .

(٣)

رد المنذر على الكتـاب[٢٧]

« أما بعـد يا رسول الله : فانى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحـدث لى فى ذلك أمرك »[٢٨] .

---

(٢٥) صبح الأعشى ٢٧٦/٦ وفتوح البلدان ٩١ .

(٢٦) اى انت ذو سلام . أو ادعو لك أن تعيش فى سلام .

(٢٧) جمهرة رسـائل العرب ٤٦ . ورد النبى على هـذا الرد نفس المرجـع والصـفحة .

(٢٨) أى مرنى بما تراه فى هـذا الشان .

(٤)

رده ــ صلى الله عليــه وسلم ــ على رد المنذر

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى . سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعــد : فانى أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح فانمــا ينصحُ لنفسه ، وانه من يطــع رسلى ويتبع أمرهم فقــد أطاعنى ، ومن نصحَ لهم فقد نصح لى ، وان رسلى قــد أثنوا عليك خــيرا ، واذا قــد شــفعتك فى قــومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفــوتُ عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته ، أو مجوسيته فعليــه الجزية » .

(٥)

كتاب خالد بن الوليد الى النبى صلى الله عليه وسلم[٢٩]

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد النبى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من خالد ابن الوليد : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فانى أحمد اليك لله الذى لا اله الا هــو .

أما بعــد يا رسول الله : صلى الله عليك ، فانك بعثتنى الى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتنى اذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم الى الاســلام ، فان أسلموا أقمت فيهم ، وقبلت منهم ، وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وســنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم ، وانى

(٢٩) صبح الأعشى ٦/٤٦٥ .

قدمتُ عليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركبانا قالوا : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا(٣٠) ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، آمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الاسلام ، وسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

(٦)

كتابه صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل(٣١) يعزيه فى ابن فقده

« من محمد رسول الله الى معاذ بن جبل :

سلام عليك ، فانى أحمدُ اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا واياك الشكر ، ثم ان أنفسنا وأهلينا وموالينا(٣٢) من مواهب(٣٣) الله السنية ، وعوارفه المستودعة(٣٤) ، نمتع بها الى أجل معدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر اذا أعطى ، والصبر اذا ابتلى .

وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعوارفه المستودعة ، متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير : الصلاة والرحمة والهدى ،

---

(٣٠) أى اعتنقوا الاسلام حتى تضمنوا السلامة فى الدنيا والآخرة .

(٣١) صبح الأعشى ٩/ ٨٠ .

(٣٢) المولى هو السيد والنصير والعبد .

(٣٣) المواهب : العطايا .

(٣٤) العوارف جمع عارفة وهى المعروف . المستودعة : التى هى فى حكم الوديعة ومن حق صاحبها أن يستردها .

ان صبرت واحتسبت ، فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين[٣٥] أن يحبط جزعك[٣٦] صبرك ، فتندم على ما فاتك ، فلو قدمت على ثواب مصيبتك ، قد أطعت ربك ، وتنجزت موعوده ، عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن الجزاء وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكان قد »[٣٧] •

(٧)

كتاب أبى سفيان
الى النبى – صلى الله عليه وسلم – فى الخندق[٣٨]

باسمك اللهم : فانى أحلف باللات والعزى ، لقد سرت اليك فى جمعنا ، وانا نريد ألا نعود أبدا حتى نستأصلكم[٣٩] ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق[٤٠] وخنادق ، فليت شعرى[٤١] من علمك هذا فان نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم احد[٤٢] •

---

(٣٥) الخصلة : الصفة . ويقصد بالخصلتين : اى فقد الولد وفقد الثواب بعدم الصبر .

(٣٦) يحبط : يبطل ويفسد ، والجزع : الخوف والفزع .

(٣٧) فكان قد : اى كان قد نزل بك الموت .

(٣٨) امتاع الأسماع ٢٣٩ . وقد كتبه أبو سفيان وبعث به مع ابى اسامة الجشمى ، فقرأه أبى بن كعب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى قبته ، وكتب له الرد عليه .

(٣٩) نستأصلكم : نقضى عيكم قضاء مبرما ، فلا يبقى لكم بقية .

(٤٠) مضايق : جمع مضيق . وهو المكان الضيق يصعب المرور منه .

(٤١) ليت شعرى : ليتنى أشعر واعرف .

(٤٢) كانت قريش تعد معركة احد من مفاخرها ، يقول ابو سفيان – من رواية اخرى لكتابه هذا « ثم غزوتك فى جمعنا يوم احد ، فكانت وقعتنا فيكم مثل وقعتكم بنا ببدر » السابق ٢٤٠ .

(٨)

رد النبى ـ عليه السلام ـ
على أبى سفيان[٤٣]

من محمد رسول الله الى أبى سفيان بن حرب • أما بعد ، فقديما غرك بالله الغرور[٤٤] • أما ما ذكرت ــ أنك سرت الينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ــ فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى •

وأما قولك : من علمك الذى صنعنا من الخندق فان الله ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح[٤٥] ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى واسلف ونائلة وهبل[٤٦] ، حتى أذكرك ذلك •

---

(٤٣) امتاع الأسماع ٢٣٩ .

(٤٤) الغرور : الشيطان .

(٤٥) الراح : جمع راحة وهى الكف .

(٤٦) أسماء اصنام كان العرب يعبدونها .

(٩)

كتاب مسيلمة بن حبيب
الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ(٤٧)

« من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله :

سلام عليك ، أما بعد فانى قد أشركت فى الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » .

(١٠)

رده صلى الله عليه وسلم على مسليمة

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

---

(٤٧) سيرة ابن هشام ١٦٨/٤ . والبلاذرى : فتوح البلدان ٩٧ مع خلاف ضئيل .

وكان مسيلمة قد جاء مع وفد بنى حنيفة الى المدينة ، واخذ يقول « لو جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته » فأشار النبى ـ عليه السلام ـ الى قطعة جريدة معه وقال « لو سألتنى هذه القطعة ما اعطيتكها ، ولن أتعدى امر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله » مسلم ١٣٢/٥ ــ كتاب الرؤيا .

المراجــــع

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ احكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية ــ د. حامد سلطان .
دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧٠ .

٣ ــ احياء علوم الدين ــ الغزالى : حجة الاسلام ابو حامد .
دار الشعب ــ القاهرة (د.ت) .

٤ ــ أدب الحــديث النبوى ــ د. بكرى شيخ أمين .
ط ٥ . دار الشروق . القاهرة ١٩٨١ .

٥ ــ ادب الخلفاء الراشــدين ــ د. جابر قميحة .
دار الكتاب المصرى ــ اللبنانى . القاهرة ١٩٨٥ .

٦ ــ اساس البلاغة ــ الزمخشرى : ابو القاسم محمود بن عمر بن الأثير
دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٢ .

٧ ــ أسباب النزول ــ السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر .
مطابع شركة الاعلانات الشرقية . القاهرة ١٩٦٣ .

٨ ــ اسد الغابة فى معرفة الصحابة ــ ابن الأثير : عز الدين .
دار الشعب . القاهرة (د.ت) .

٩ ــ أسرار البلاغة ــ عبد القاهر الجرجانى .
دار المنار ــ القاهرة ١٩٧٢ .

١٠ ــ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ــ مصطفى صادق الرافعى .
ط ٤ . مطبعة القاهرة ــ القاهرة ١٩٤٥ .

١١ ــ الاغانى ــ الأصفهانى : ابو الفرج على بن الحسين ــ تحقيق وشرح ابراهيم الابيـــارى .
دار الشعب ــ القاهرة (د.ت) .

١٢ ــ امتاع الأسماع ــ المقريزى : تقى الدين احمد بن على ــ تحقيق الشيخ محمود شاكر .
مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٤١ .

١٣ ــ البيان والتبين ــ الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر .
ط ٢ ــ دمشق ١٩٦٣ .

١٤ ــ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام ــ المجلد الأول المغازى ــ الذهبى : أبو عبد الله شمش الدين محمد بن أحمد بن عثمان ــ تحقيق : محمد محمود حمدان .
ط ١ . دار الكتاب المصرى ــ اللبنانى ــ القاهرة ١٩٨٥ .

١٥ ــ تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) ــ الطبرى : محمد بن جرير ــ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .
دار المعارف ــ القاهرة (د.ت) .

١٦ ــ تاج العروس من جواهر القاموس ــ الزبيدى : محب الدين ابو الفيض السيد محمد مرتضى .
المطبعة الخيرية ــ القاهرة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) .

١٧ ــ تراث الاسلام (قسم ٣) ــ شاخت وبوزورت ــ ترجمه د. حسين مؤنس . د. احسان صـــدقى .
الكويت ١٩٧٨ .

١٨ ــ التشريع والفقه فى الاسلام تاريخا ومنهجا ــ مناع القطان .
ط ١ ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ١٩٧٦

١٩ ــ **تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى ــ أنيس المقــدسى .**
ط ٥ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٤ .

٢٠ ــ **تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) ــ الامام : محمد عبده .**
ط ٣ ــ دار المنار ــ القاهرة ١٩٦٧ .

٢١ ــ **تنازع القوانين ــ د. جابر جاد عبد الرحمن .**
دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٦٢ .

٢٢ ــ **الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبى : ابو عبد الله محمد بن احمــد الانصـــــارى .**
دار الشعب ــ القاهرة (د.ت) .

٢٣ ــ **جمرة خطب العرب ــ أحمد زكى صفوت .**
ط ٢ ــ مصطفى الحلبى ١٩٦٢ .

٢٤ ــ **جمهرة رسائل العرب ــ احمد زكى صفوت .**
ط ٢ ــ مصطفى الحلبى ــ القاهرة ١٩٦٢ .

٢٥ ــ **الحكومة الاسلامية ــ أبو الأعلى المودورى ــ ترجمة احمد ادريس .**

ط ٢ ــ المختار الاسلامى ــ القاهرة ١٩٨٠ .

٢٦ ــ **الحكومة الاسلامية ــ د. محمد حسين هيكل .**
دار المعارف ــ القاهرة ١٩٧٧ .

٢٧ ــ **الحياة العربية من الشعر الجاهلى ــ د.أحمد الحوفى .**
ط ٢ ــ مكتبة نهضة مصر ــ القاهرة ١٩٥٢ .

٢٨ ــ **حياة محمد ــ د. حسين هيكل .**
ط ١٣ ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٧٥ .

٢٩ ــ **الرسائل الفنية فى العصر الاسلامى حتى نهاية العصر الأموى ــ غانم جــوار رضا .**
مطبعة اســعد ــ بغــداد (د.ت) .

٣٠ ــ **الرسول حياة محمد ــ ر.ف. بودلى ــ ترجمة محمد محمد فرج ــ د. عبد الحميد السحار .**
ط ٢ ــ مكتبة مصر ــ القاهرة (د.ت) .

٣١ ــ **روائع الأدب فى عصور العربية الزاهرة جـ ١ (عصر الراشــــدين وبنى أمية) ــ د. محمد نبيه حجاب .**
ط ١ ــ دار المعارف بالقاهرة .

٣٢ ــ **زاد المعاد فى هــدى خير العباد ــ ابن القيم الجوزى الامام الحافظ أبو عبد الله .**
مكتبة صبح ــ القاهرة (د.ت) .

٣٣ ــ **السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ــ ابن تيمية ابو العباس تقى الدين احمد بن تيمية .**
طـ ٤ ــ دار الكتاب العربى ــ القاهرة .

٣٤ ــ **السيرة النبوئة ــ ابن هشام : أبو محمد بن عبد الملك .**
المكتبة التوفيقية ــ القاهرة (د.ت) .

٣٥ ــ **شرح القصائد العشر ــ التبريزى الخطيب ابو زاكريا يحيى بن على .**
المطبعة المنيرية ــ القاهرة ١٣٦٩ هـ .

٣٦ ــ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى ــ القاضى عياض بن موسى اليحصبى**
مكتبة دار التراث ــ القاهرة ــ عن طبعة المطبعة العثمانية ١٣١٢ ــ القــــاهرة .

٣٧ ــ **صبح الاعشى فى صناعة الانشا ــ القلقشندى : ابو العباس أحمد بن على .**
المؤسسة المصرية العامة ــ القاهرة ١٩٦٣ .

٣٨ ــ **صحيح البخارى ــ الامام البخارى : ابو عبد الله محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم .**
دار الشعب ــ القاهرة (د.ت) .

٣٩ ــ **صحيح مسلم ــ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى .**
دار الشعب ــ القاهرة (د.ت) .

٤٠ ــ **الطبقات الكبرى ــ محمد بن ســعد .**
دار صادر ــ بيروت ١٩٥٧ .

٤١ ــ **عبقرية محمد ــ عباس محمود العقاد .**
دار نهضة مصر للطبع والنشر ــ القاهرة ١٩٧٧ .

٤٢ ــ **العسكرية العربية لاسلامية ــ محمود شيت خطاب .**
ط ١ ــ قطر ١٤٠٣ .

٤٣ ــ **العقــد الفريد ــ ابن عبد ربه الأندلسى أبو عمر أحمد بن محمد .**
نجنة التاليف والترجمة وانشر ــ القاهرة ١٩٤٠ .

٤٤ ــ **فتوح البلدان ــ الامام البلاذرى ابو الحسن ــ راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان .**
دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ١٩٧٨ .

٤٥ ــ **فجر الاسلام ــ أحمد أمين .**
ط ٧ ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة .

٤٦ ــ **فقة السيرة ــ محمد الغزالى .**
ط ١ ــ دار الكتاب العربى ــ القاهرة ١٩٥٣ .

٤٧ ــ **الفن ومذاهبه فى النثر العربى ــ د٠ شوقى ضيف ٠**
ط ٩ ــ دار المعارف ١٩٨٠ .

٤٨ ــ **فى ظلال القرآن ــ سيد قطب ٠**
دار الشروق ــ القاهرة ١٩٧٨ .

٤٩ ــ **القانون الدولى العام فى وقت السلم ــ د٠ حامد سلطان ٠**
ط ٣ ــ دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٦٨ .

٥٠ ــ **القضايا الكبرى فى الاسلام ــ عبد المتعال الصعيدى ٠**
مكتبة درب الجماميز ــ القاهرة (د.ت) .

٥١ ــ **الكامل فى التاريخ ــ عز الدين بن الاثير ٠**
دار صادر ــ بيروت ١٩٧٩ .

٥٢ ــ **كتاب الصناعتين ــ ابو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى ٠**
دار احياء الكتب العربية ــ القاهرة ١٩٥٢ .

٥٣ ــ **كتاب الوزراء والكتاب ــ الجهشيارى : أبو عبد الله محمد بن عبدوس تحقيق مصحفى السقا وآخرين ٠**
ط ٢ ــ مصطفى البابى الحلبى ١٩٨٠ .

٥٤ ــ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجـــوه التاويل ــ الزمخشرى : ابو القاسم جار الله محمود بن عمر ٠**
دار الفكر ــ بيروت ــ القاهرة .

٥٥ ــ **لسان العرب ــ ابن منظور المصرى ٠**
دار المعارف بالقاهرة (د.ت) .

٥٦ ــ **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشـــدة ــ د٠ محمد حميد الله ٠**
ط ٣ ــ دار الارشاد ــ بيروت .

٥٧ ــ **مختار الصحاح ــ محمد بن ابى بكر الرازى .**
المطبعة الأميرية ــ القاهرة ١٩٢٢ .

٥٨ ــ **مختصر تفسير ابن كثير ــ للامام ابن كثير : عماد الدين ابى الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقى ــ اختصار وتحقيق محمد على الصابونى .**
ط ٧ ــ بيروت ١٩٨٢ .

٥٩ ــ **المدخل الى القيم الاسلامية ــ د. جابر قميحة .**
دار الكتاب المصرى ــ اللبنانى ــ القاهرة ١٩٨٤ .

٦٠ ــ **المشروعية الاسلامية العليا ــ د. على جريشة .**
ط ١ ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ١٩٧٦ .

٦١ ــ **المعاهدات والمهادنات فى تاريخ العرب ــ محمد عبد الغنى حسن .**
الدار المصرية للتأليف والترجمة ــ القاهرة ١٩٦٦ .

٦٢ ــ **موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية : الكتاب الأول السيرة النبوية العطرة ــ د. احمد شلبى .**
ط ١ ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٨١ .

٦٣ ــ **نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (دراسة فى وثائق العهد النبوى) د. عون الشريف قاسم .**
ط ٢ ــ دار الكتاب المصرى اللبنانى ــ القاهرة ١٩٨١ .

٦٤ ــ **النظام الدستورى العربى ــ د. ثروت بدوى .**
دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٦٤ .

٦٥ ــ **نظرية الحق ــ عبد الحى حجازى .**
ط ٢ ــ دار الكتاب العربى ــ القاهرة ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ .

٦٦ ـ **نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ـ د. حسين نصار .**
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٤ .

٦٧ ـ **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ـ الشيخ عبد الحى الكتانى .**
بيروت (د.ت) .

٦٨ ـ **النظريات السياسية الاسلامية ـ د. محمد ضياء الدين الريس .**
ط ٧ ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة ١٩٧٩ .

٦٩ ـ **نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ النويرى شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب .**
دار الكتب المصرية ١٩٥٤ .

كتب للمؤلف

١ ـــ **منهج العقاد فى التراجم الأدبية**
دار النهضة المصرية القاهرة

٢ ـــ **المدخل الى القيم الاسلامية**
دار الكتاب المصرى ـــ اللبنانى ـــ القاهرة

٣ ـــ **ادب الخلفـــاء الراشـــدين**
دار الكتاب المصرى ـــ اللبنانى ـــ القاهرة

٤ ـــ **التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى**
توزيع دار المعارف ـــ القاهرة

٥ ـــ **فى صـــحبة المصطفى**
دار الكتاب المصرى ـــ اللبنانى ـــ القاهرة

٦ ـــ **الشاعر الفلسطينى الشهيد : عبد الرحيم محمود**
او : ملحمة الكلمة والدم
دار الفكر العربى بالقاهرة

يصـــدر قريبـــا للمؤلف

ادب الرســـائل فى صـــدر الاسلام

الجزء الثانى : عهد الخلافة الراشدة

محتويات الكتاب

النبى الأمى : امية النبى وامية العرب . كتاب الرسول : الكتاب المباشرون . كتاب الدولة .

هل كتب الرسول فى حياته ؟ . ما حدث فى الحديبية هو سبب الخلاف . آراء ثلاثة فى هذه المسألة . نقدنا لهذه الآراء . اضطراب الروايات فى مسألة المحو والاثبات . النبى لم يكتب شيئا يوم الحديبية . بصمات الشيعة فى رواية المحو والاثبات . بين الحديبية سنة ٦ هـ وعهد التصالح بين على ومعاوية سنة ٣٧ هـ .

وكتابة على جبل سلع : اسماء محمد وابى بكر وعلى مكتوبة على الجبل حفرا . د. حميد الله لا يستبعد صحة نسبة الكتابة اليهم . نقض هذا الراى .

الفصل الثانى

البواعث والدوافع

(٣٣ ـ ٥٢)

فى مكة : سنوات الاعداد . ثلاثة عشر عاما من الدعوة الى الله . الدعوة من السرية الى الجهرية . هجرتان الى الحبشة . ميل الدكتور هيكل الى أن وراء الهجرتين هدفا سياسيا . ما فى هذا الراى من اسراف . رواية ابن اسحق تنقض « تسييس » هجرتى الحبشة . آثار غير مباشرة لهاتين الهجرتين .

الهجرة الى المدينة او الطريق الى الدولة : ملامح التشريع المكى . لقاءات ثلاثة مع الأنصار قبل الهجرة . اهم ما يميز العهد المكى .

فى المدينة : دولة الاسلام : الهجرة الى الحبشة والهجرة الى المدينة والفرق بينهما . من الصعب الى الأصعب . ومن الأرض الرافضة الى الأرض القابلة .

دولة المدينة وطبيعتها . بعض الحكومات فى الجزيرة العربية فى الجاهلية . لا دولة عربية مركزية . دولة المدينة فى ضوء القواعد القانونية قديما وحديثا . اركان « الدولة العصرية » توفرت لدولة المدينة .

البواعث والدوافع : نشوء مجموعة من العلاقات الجديدة . **المراحل التى مرت بها العلاقة بين مكة والمدينة** . علاقة بين مجتمعين . علاقة بين مجتمع ودولة « غير مشروعة » . علاقة بين مجتمع ودولة شرعية . علاقة الدولة باليهود . علاقة الدولة بالمنافقين . **ركيزتان فى تكييف هذه العلاقات** : ركيزة الحكمة والموعظة الحسنة . ركيزة استخدام القوة . نشوء الدولة وظهور هذه العلاقات وراء الرسائل والكتب . الدافع السياسي . دافع الحرب النفسية . كتب التجسس . دافع السلام . دافع نشر الدعوة . دواعث نفسية اخرى .

الفصل الثالث

الموضوعات والمضامين

(٥٣ ــ ١٠٨)

١ ــ المعاهدات وكتب الصلح : بين المسلمين واليهود . طبيعة العلاقات السابقة فى مجتمع المدينة . قوام المجتمع الجديد بعد الهجرة . سلام لا مواجهة . تعليل ذلك . **المبادىء السياسية والقيم الاجتماعية فى معاهدة الوادعة** . التقاء هذه المبادىء فى الحرص على اقرار السلام والتكامل والاستقرار .

سمات موضوعية فى العهد : الشمولية . عمومية النص . مراعاة الواقع الاجتماعى والتاريخى . دقة الصياغة . هل يعتبر الكتاب من نوع « الدستور المنحة » ؟ الرد على هذه الشبهة .

بين النبى وكفار مكة (صلح الحديبية) . بين كتابين . نص

الصلح . المبادىء التى قررها . موقف المسلمين من الصلح . عبقرية الرسول وبعد نظره . **كتب الأمان : مفهومها وانواعها .**

٢ — **كتب الدعوة الى الاسلام** . لماذا العام السادس للهجرة ؟ . **الرسل المبعوثون الى الملوك والأمراء . مضامين هذه الكتب** . وجوه اتفاق . وجوه اختلاف . تاثير هذه الكتب .

٣ — **الرسائل والكتب التشريعية** : مفهومها ومجالاتها . نوعان من هذه الكتب . كتاب النبى فى الصدقات أو فى الكتب التشريعية المتخصصة .

٤ — **كتب الاقطاع والغنائم** : مفهومها . البواعث والدوافع الى كتابة هذه الكتب : الكرم . تاليف القلوب . الفقر والعوز . التعمير . الفىء والغنائم . تشكيك حميد الله فى هذا النوع من الكتب . معياران احتكم اليهما فى التشكيك . رأينا فيما ذهب اليه .

حالات أخرى من اقطاع النبى — صلى الله عليه وسلم — .

كتب الغنائم . مفهومها نموذج منها . بينها وبين كتب الاقطاع .

٥ — **الكتب الادارية والتنظيمية** : مفهومها ومجالاتها . كتب التولية والتنصيب . كتب التكليفات بمهام محددة . كتب تنظيمية تنص على عقوبات للمخالف . بين هذا النوع من الكتب والكتب التشريعية .

٦ — **كتب التجسس والاستطلاع** : مفهوم هذه الكتب ومدى الاحتياج اليها . دور العباس بن عبد المطلب فى مكة . كتاب حاطب بن ابى بلتعة الى المشركين فى مكة . موقف النبى والمسلمين مما فعل حاطب . موقف الشريعة والقانون من هذا الفعل . ندرة هذا النوع من الكتب .

٧ — **الكتب الشخصية أو الخاصة** . مفهومها . هل يمكن ان تكون بين شخصايت عامة ؟ . العبرة فى راينا بالموضوع لا الأطراف . **رسالة النبى الى معاذ يعزيه فى ابنه** . تشكيك بعضهم فى صحة نسبة هذه الرسالة الى النبى . ردنا على هذا التشكيك .

٨ — **الكتب الجوابية :** منهوم هـــذه الكتب . نماذج منها . كتب الردود على الردود .

٩ — **كتب الآخرين :** كثرة كتب النبى وقلة كتب الآخرين . تعليل ذلك . كتب الآخرين نوعان : كتب جوابية . كتب انشائية . كتاب خالد بن الوليد . كتاب مسيلمة الكذاب . عهد العلاء بن الحضرمى لأهل البحرين . ردود بعض الأمراء والحكام على الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصـــل الرابع

الملامح والسمات الفنية

(١٠٩ — ١٥١)

الفصاحة النبوية : مصادرها وطبيعتها : المصدر القرآنى . المصدر البيئى . المصدر الذاتى . قمة البلاغة البشرية . الجاحظ وبيان الرسول .

منهج الرسالة النبوية : ١ — الافتتـــاح بالبسملة ٢ — ذكر طـــرفى الكتاب ٣ — التحية بالسلام ٤ — أما بعـــد ٥ — ختام الرسالة .

المضمون بين الرسالة والخطبة • فروق بين النوعين . تعليل هـــذه الفـــروق .

بين الاطناب والايجاز • خطأ من يفاضل بينهما . لكل منهما مقامه . غلبة الايجاز على رسائل النبى — عليه السلام — تعليل ذلك .

التقابل والتضاد • منهومه واثره . امثلة له فى رسائل النبى — عليـــه الســـــلام .

السهولة والوضوح • الآثار السيئة للتعقيد . أسلوب النبى اسلوب عصرى . تعليل ما فى بعض رسائله من غريب حوشى . مراعاته مقتضى الحال . جانبان لهـــذه المراعاة .

التدفق والترسل : مفهوم هـذه السمة . لماذا كره السجع ؟ . اختلاف النقـاد فى ذلك . رأينا فى هـذه المسألة . سجع النبى وتقييمه . كتاب موضوع على النبى . ادلتنا على الوضع .

الشواهد القرآنية والأسلوب النبوى . ركـائز النبى فى الاستشهاد بالقرآن : طبيعة المرسل اليه وطبيعة السياق والموضوع . امثلة متنـوعة **طرق استشهاده بالقرآن** . الاستشهاد بالآية أو بعضها بالنص . الاستشهاد بالآية مع تغيير طفيف . كلمات قرآنية فى تضاعيف الرسائل .

بين التقرير والتصوير : ارتباط طبيعة الأسلوب بطبيعة الموضوع . كتب ذات أسـلوب علمى بحت . العنصر الفـكرى هـو أهم العناصر . **العنصر التصويرى فى الرسائل** . نماذج من الصور .

بين الشك واليقين : ضرورة فحص الرسائل داخليا للحكم بصحتها أو وضعها . مثال لرسالة موضوعة . عود الى معيارى حميد الله . كتب موضوعة بلا شك . أدلتنا على الوضـع . **شك القـدسى فى كتب النبى الى الملوك** . ردنا على ما ذهب اليه . أغلب كتب النبى عليه السلام صحيح .

مختارات من الكتب والرسائل
(١٥٣ ــ ١٦٥)

١ ــ كتاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بين المسلمين والأنصار واليهود بالمدينة .

٢ ــ كتابه للمنذر بن ساوى ملك البحرين .

٣ ــ رد المنذر على الكتاب .

٤ ــ رده ــ عليه السلام ــ على رد المنذر .

٥ ــ كتاب خالد الى النبى ــ صلى الله عليه وسلم .

رقم الايداع : ٨٦/٤٧٣٣
الترقيم الدولى : X — ٠٢٨٥ — ١٠ — ٩٧٧

شركة دار الاشـــعاع للطباعة
١٤ شـارع عبد الحميد — جنينة قاميش
السيدة زينب ت : ٣٦٣٠٤٦٩